بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة منقحة ٢، بعنوان: (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ)

القرآن العظيم: منبعُ القيم، ودستورُ السعادة، وجامعُ الرسالات، ومُلهمُ الحضارات

القرآن غَيَّر مجرى التاريخ وأعاد للإنسان كرامته

كيف سيكون حال العالَم لو لم يَمْتَنَّ اللّه على البشرية بالقرآن العظيم؟

خمسون واجبًا على المسلم تجاه القرآن الكريم

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الجمعة: ٩ جمادى الأولى ١٤٤٧هـ، الموافق ٣١ أكتوبر ٢٠٢٥م

موقع صوت الدعاة - صفحة معارج الدعاة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدى ورحمة للعالمين، وجعله نورًا يبدِّد ظلمات الجهل والشقاء، وشفاءً لما في الصدور، وفرقانًا بين الحق والباطل، وصراطًا مستقيمًا لا يزيغ عنه إلا هالك.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رب كل شيء ومليكه، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه من خلقه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، الأشرفان الأنوران، الأعطران الأزهران، المزهران المثمران، على مَن جُمعت كلّ الكمالات فيه.. وعلى آله وصحبه وتابعيه.. اللهم صلِّ أفضل صلاة، على أسعد مخلوقاتك، سَيِّدِنَا محمد

(ﷺ)، وعلى آله وصحبه؛ عدد معلوماتك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، ورضى الله عن مشايخنا ووالدينا وأجدادنا وأولادنا وأزواجنا، والصالحين من عبادك، وأولياء الله أجمعين.

اللهم صلّ صلاة كاملة، وسلم سلامًا تامًّا، على نبي تنحلُ به العُقد، وتنفرج به الكُرب، وتقضى به الحوائج، وتُنالُ به الرغائب، وحُسنُ الخواتيم، ويستسقى الغمامُ بوجه الكريم. وعَلَى آلِهِ الطاهرين، وصحبِه الطيبين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا... اللهم آمين يا رب العالمين.

فَمَبْلَغُ العِلْـمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ... وَأَنَّهُ خَيْـرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِـمِ

مولاي صلِّ وسلم دائما أبدًا... على حبيبك خير الخلق كلهم

اللهم رضِّه عنَّا، وارض عنَّا، برضاه عنَّا.. ووضئنا بأخلاقه العظيمة، وحقق أمانينا بزيارته، وافتح لنا أبواب رؤيته، ونيل شفاعته، اللهم آمين يا رب العالمين...

أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله، فإنها وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) (النساء: ١٣١)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) (الأحزاب: ٧٠-٧١)، وقال تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٢٢٣)... أما بعد...

في البداية، نؤكّدُ للعالَمِ كلِّه –نحنَ معاشرَ المسلمينَ في شتى أنحاءِ الدنيا وفي سائر العصور– أننا مهما تكلَّمْنا عن جلالِ القرآنِ الكريم وجمالِه وكماله وعظمته وبيانِه وشموله وإعجازه وإيجازه وعطائه المتجدد، ومهما أفرغْنا من جهدٍ وبحث وبيانٍ في ذلك، فلن نستطيعَ أن نُوفِّيَه معشارَ معشارِ ما يستحقُّه من التبجيل والتعظيم، ولن نستطيعَ أن نستخرجَ إلا جزءا يسيرا جدا من كنوزَه وعطاءاتِه المتجدِّدة؛ ولِمَ لا؟!

- فهو كلامُ ربِّ العالمينَ.
- الدستورُ الإلهيُّ الدائمُ العطاءِ.
- الذي لا يَخْلَقُ على كثرةِ الرَّدِّ.
- ولا تنقضى عجائبُه.
- ولا يَشبعُ منه العلماءُ.
- ولا يَمَلُّه الأتقياءُ.
- وهو النورُ المبين الذي أضاء ظلماتِ الحياةِ، وأنارَ دروبَ الإنسانيَّةِ إلى يومِ الدِّين.

أعظمُ معجزة خالدة أنعمَ اللهُ بها على البشريَّة:

القرآن الكريم هو: كلامُ الله تعالى، المنزَّلُ على نبيِّه سيدنا محمدٍ (ﷺ)، بواسطةِ أمين الوحي سيدنا جبريلَ (عليه السلام)، المتعبَّدُ بتلاوتِه، المكتوبُ في المصاحف، المنقولُ إلينا بالتواتر، المعجِزُ بلفظِه ومعناه، المتحدَّى بأقصرِ سورةٍ منه، المفتتحُ بسورةِ الفاتحة، والمختتمُ بسورةِ الناس...

والقرآنُ الكريمُ هو أعظمُ معجزةٍ خالدةٍ أنعمَ اللهُ (سبحانه وتعالى) بها على خير البرية؛ بل وعلى البشريَّةِ، إنه كلام الله الخالد الذي خاطبَ به خلقَه، فكان:

- هدايةً للقلوب.
- وتزكيةً للنفوس.
- وتشريعًا يُنظِّمُ حياةَ الإنسان في دينه ودنياهُ وآخرته.
- ودستورًا نهائيًا مستدامًا لإدارة الكون وإسعاد الحياة.

القرآن: جامع الرسالات ومُلهم الحضارات

جمعَ الله (سبحانه وتعالى) في القرآنِ العظيم كلَّ معاني الكتب السماوية...

ويقول العلماء بأن كل معاني القرآن تجمعت في سورة الفاتحة.

قد تضمَّن القرآن أرقى القيمِ الإنسانيَّةِ، ودعا إلى العلمِ والعملِ، والعدلِ والإحسانِ، والرحمةِ والسلامِ، والتفكُّرِ في آياتِ اللهِ في الكونِ والحياةِ والإنسانِ، فحو بحق ملهم الإنسان والحضارات وموجههم لكل خير ورشاد.

ومن تدبَّرَ القرآنَ، أيقن أنَّه ليس كتابَ تلاوةٍ وتدبر فحسبُ، بل هو:

– دستورُ حياةٍ راشدة، يبطلق من رؤيةٍ ربانيةٍ شاملةٍ تُوجِّه الإنسانَ في مساره، وتهديه سواءَ السبيل.

– يُعيدُ بناءَ الإنسانِ والمجتمعِ والحضارات على أُسُسٍ تجمع بين الإيمانِ والعلمِ والكرامةِ والعدالةِ.

– ويُعينُ الأُمَّةَ على النهوضِ والتمكينِ.

القرآن مصدر الهداية

يقول فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ عبد الحليم محمود (رحمه الله) : "... ولا بد هنا من كلمة إلى كل فرد وكل مواطن وكل مسئول في العالم الإسلامي: إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا، وأساس نجاتنا (دنيا وأخرى)، ومهما اختلفنا في أمر من الأمور، فإننا لا نختلف في النتيجة السعيدة التي تثمرها العناية بالقرآن الكريم: (للفرد، وللأسرة، وللمجتمع،...)، إن هذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقومُ... التي هي أقوم في العقيدة.. والتي هي أقوم في الأخلاق.. والتي هي أقوم في التشريع.. والتي هي أقوم في نظام المجتمع.

وإن مِن مفهوم الإيمان عند كل مؤمن اليقين بذلك، ولا يختلف المؤمنون في شيء من هذا أبدًا.

وتعاليم القرآن –في كل زاوية من زوايا الحياة– هي الصراط المستقيم: خذ مثلا العلم والحث عليه؛ العلم بالله، وبالكون، بالأرض، وبالسماء، وبما بين الأرض والسماء، فستجد أروع ما قيل في الحث على طلب العلم. خذ مثلا الأمانة: تجد القرآنَ يُدخِلها –كجزء لا يتجزأ– في مفهوم الإيمان... يقول صلوات الله وسلامه عليه: (لا إيمانَ لمنْ لا أمانةَ لَه، ولا دينَ لمنْ لا عهدَ لَه) [١]. خذ الشورى. خذ الجهاد. وخذ الإعداد للجهاد ماديًّا، ومعنويًّا [٢].

ولقد حذَّر فضيلتُه من التهاونِ في حقّ القرآنِ علينا، مشيرًا إلى أنَّ كثيرًا من الناس، من الأثرياءِ والمثقَّفين وغيرهم، لا يؤدُّون للقرآنِ ما ينبغي له، وأنَّ الحياةَ ستنتهي، ولن ينفعَهم إلَّا ما قدَّمت أيديهم من خير ومن عنايةٍ بهذا الكتابِ العظيم (بذلًا، ونشرًا، وتحفيظًا، وتفهيمًا، وتمكينًا،...)، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ

(١) أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير – صحيح.

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي، الطبعة الثالثة ، القاهرة: دار المعارف، ص٤٠..

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ .هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الحشر: ١٨-٢٤) (٣).

المحاور العامة للقرآن الكريم

لقد أنزل اللهُ (سبحانه وتعالى) القرآنَ الكريمَ لهداية البشريةِ جمعاء، وليكون دستورَ حياةٍ ومنهجَ نجاة، يجمع بين العقيدة والتشريع، والأخلاق والآداب، والعلم والإعجاز.

وقد تضمن القرآن محاورَ كبرى تشكل أساس رسالته العالمية، وتبرز شموليته وصلاحيته وكماله وجماله وجلاله.

المحاور الخمسة للقرآن الكريم:

كتب أستاذُنا العلّامةُ الراحلُ الشيخُ محمد الغزاليُّ –رحمه الله– كتابَه الماتع المحاور الخمسة للقرآن الكريم، – وأوصي القراء بالاطلاع عليه–؛ فقد حدَّد فيه خمسةَ محاورَ جامعةٍ تُبيِّن مقاصدَ القرآن الكريم الكبرى، وهي:

المحور الأول: الله الواحد.

المحور الثاني: الكون الدال على خالقه.

المحور الثالث: القصص القرآني.

المحور الرابع: البعث والجزاء.

المحور الخامس: التربية والتشريع.

هذه المحاور الخمسة التي أفاض القرآن في ذكرها، وانتهى أستاذنا الإمام محمد الغزالي إلى أنها أمهات لمسائل أخرى كثيرة تندرج تحتها.

فتصورنا الإسلامي لله، هو التصور الذى يليق بعظمة الله (تعالى) ويُقدر الله حق قدره...

كما أن التصور القرآني للكون، هو أصدق تصور، وهو الدليل الأكبر على عظمة الخالق، وهو الآية العظمى بنسيجها البديع، ونظامها الدقيق، وحركتها المنضبطة التي لا تتخلف جزءًا من مائة من ثانية واحدة.

والقصص القرآني ليس المقصد منه أن يكون القرآن كتاب تاريخ؛ بل المقصد الأسمى أن يفهم المسلمون سنن الله الكونية والاجتماعية، وألا يحاولوا القفز من فوق سنن الله، وأن يعوا أنهم لن يُمكَّنوا فى الأرض إلا إذا تفاعلوا التفاعل الصحيح مع هذه السنن...

وقد تحدث القرآن حديثا مستفيضا عن البعث والجزاء، وكأنهما حاضر يراه الناس.

وقد أراد الله من ذلك تربيتنا على (تمثل الغيب) في فكرنا وسلوكنا... لأننا المؤمنون (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...) إيمانا لا يتزعزع، إذ هو جزء من إيماننا بالله... وهو كذلك من وسائل التربية والتقويم (٤).

مسائل وقضايا قرآنية تندرج تحت المحاور السابقة

أولًا: مسائل الإيمان واليقين

ومن ذلك:

- الإيمان بالغيب ومقام التسليم لله (تعالى).

(٣) الدكتور عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي، (المرجع السابق)، ص ٤٣ بتصرف.

(٤) راجع: الشيخ محمد الغزالي : المحاور الخمسة للقرآن الكريم، القاهرة: طار الشروق، ١٤٠٩هـ.

- معنى العبودية الحقَّة ومقتضياتها في الحياة.
- قضية الحرية الإنسانية بين الإرادة الإلهية والاختيار البشري.
- حكمة الابتلاء.
- مراتب الإيمان: العلم، ثم اليقين، ثم الاطمئنان.
- السنن الإلهية في الهداية والضلال.
- أثر الإيمان في تهذيب النفس وإصلاح السلوك.
- مفهوم التوبة والرجوع إلى الله (سبحانه وتعالى).

ثانيا: مسائل الإنسان والكرامة الإنسانية

- فطرة الإنسان.
- مبدأ المساواة الإنسانية في أصل الخِلقة والمصير.
- تكريم الإنسان واستخلافه في الأرض.
- مسؤولية الإنسان عن عمله وعمره وماله...إلخ.
- الإرادة الذاتية والغرائز والعقل والضمير.
- العلاقة بين الجسد والروح، والمادة والمعنى.
- محاسبة الإنسان على النية والعمل.

ثالثًا: مسائل المجتمع والعمران

- بناء الأمة على أساس الإيمان والأخوة والعدل.
- مبدأ الشورى في الحكم والإدارة.
- العدالة الاجتماعية في الحقوق والواجبات.
- التكافل والإحسان والإيثار في المجتمع المسلم.
- دور الأسرة في التربية وبناء الأجيال.
- صيانة الحقوق العامة والخاصة.
- العلاقة بين الحاكم والمحكوم في ميزان القرآن.
- الإصلاح الاجتماعي ومحاربة الفساد والظلم.

رابعًا: مسائل العلم والمعرفة

- منهج القرآن في التعليم والتربية.
- الدعوة إلى طلب العلم والتفكر والتدبر.
- العلم وسيلة لعبادة الله ومعرفة آياته (الكونية والتشريعية).
- الجمع بين العقل والنقل في المنظور القرآني.
- خطر الجهل وأثره في انحراف الأمم والحضارات.
- المعرفة القرآنية القائمة على البصيرة لا على الظن.
- قيمة القراءة والكتابة في تكوين الوعي.

- الإعجاز العلمي في آيات الخلق والكون.

خامسا: مسائل الأخلاق والسلوك

- الصدق والأمانة والوفاء بالعهد.
- الصبر والشكر والرضا واليقين.
- الحلم والعفو والرحمة بالخلق.
- التواضع ونبذ الكبر والعُجب.
- مراقبة الله في السر والعلن.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- إصلاح القلب أساس إصلاح العمل.
- العدل والإنصاف حتى مع المخالفين.

سادسًا: مسائل السنن الإلهية

- سنّة التدرج في الإصلاح.
- سنّة التدافع بين الحق والباطل.
- سنّة الابتلاء والتمحيص والتمكين.
- سنّة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله.
- سنّة الجزاء من جنس العمل.
- سنّة التداول الحضاري بين الأمم والحضارات.

سابعًا: مسائل الدعوة والإصلاح

- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.
- الصبر على الأذى في سبيل الدعوة.
- الوسطية والاعتدال في المنهج.
- محاورة المخالفين بالحجة والبرهان والجدال بالتي هي أحسن.
- الدعوة بالقدوة والسلوك.
- تربية الداعية على الإخلاص والصدق والتجرد.
- الإصلاح العام يبدأ من النفس.
- الدعوة إلى وحدة الصفّ ونبذ الفرقة.

ثامنًا: مسائل الحضارة والنهضة

- عمارة الأرض عبادة ومسؤولية.
- العمل والإنتاج وإتقان الصنعة فريضة دينية.
- التوازن بين الدين والدنيا.
- احترام الوقت واستثماره في الخير.
- قيمة النظام والانضباط في الحياة.

- الإعمار القيمي مع الإعمار المادي.
- دور الإيمان في بناء الحضارة واستدامتها.
- أثر القيم القرآنية في قيام الأمم وسقوطها... وغيرها من القضايا...

وهكذا تتكاملُ المسائلُ القرآنيةُ المنبثقةُ عن محاوره الكبرى؛ لتُكوّن منظومةً ربانيةً متناسقةً، تستهدفُ بناءَ الإنسانِ الصالح، والمجتمعِ الراشد، والحضارةِ المتوازنةِ التي تُقيم صلتَها بالله (تعالى) وتُحقّق وظيفتَها في الأرض، وتتهيّأُ للقاءِ ربِّها يومَ الدين.

٢٠ فريدة من فرائد القرآن الكريم

تفرد القرآن الكريم بعدد كبير من الفرائد التي تميز بها، نقطف منها ما يلي:

١. أنَّه كلامُ اللهِ المنزلُ على نبيّه سيدنا محمَّدٍ (ﷺ) بواسطةِ سيدنا جبريلَ (عليه السلام)، وهو وحيٌ إلهيٌّ معصومٌ، لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفِهِ، وهو أعظمُ منَّةٍ من اللهِ (سبحانه وتعالى) على خلقِه.

٢. أنَّه محفوظٌ من التحريفِ والتصحيف والتبديلِ والحذف والزيادة، وقد تكفَّلَ اللهُ (تعالى) بحفظِه إلى يومِ القيامةِ، فقال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩).

٣. هو دستورُنا ومنهجنا في توحيدِ اللهِ (سبحانه وتعالى) وإفرادِهِ بالعبادةِ، وتنزيهِه عن الشريكِ والنظيرِ والند والشبيه والمثيل، وإثباتِ كمالِ أسمائِه وصفاتِه.

٤. الإعجازُ البلاغيُّ البديعُ، يتفرَّدُ القرآنُ الكريمُ بأسلوبٍ معجزٍ يأسرُ الألبابَ، ويُدهشُ العقولَ والأسماعَ، يجمعُ بين: جمالِ البيانِ، وعمقِ المعانى، وروعةِ التأثيرِ، في إعجازٍ لغويٍّ خالدٍ ومستدام، تمتازُ ألفاظُه بالسلاسةِ والعذوبةِ والوضوحِ مهما اختلفت العصور والمصور، وهذه مزية وفريدة للوحي الشريف المعصوم ليست لغيره، وتبقى كلماتُ القرآنِ الكريمِ حيَّةً متجدّدةً في كلِّ عصرٍ وجيلٍ؛ **ميسرةً لكلِّ عقل وإن اختلف الزمان والمكان -وهذه معجزة أخرى-** على خلافِ كثيرٍ من كتبِ التراثِ التي لا يمكن فهمُها إلَّا بمعاجمَ وقواميس، أمَّا القرآنُ فبيانُه في متناولِ العقولِ على مرِّ العصورِ، ومعجزتُه باقيةٌ ما بقيَ الإنسانُ والحياةُ.

٥. الإعجازُ المعنويُّ، يتضمَّنُ القرآنُ الكريمُ في كل آية من آياته؛ بل في كلِّ كلمةٍ منه، معانيَ عميقةً تُهذّبُ النفسَ، وتُزكّي الروح، وتُنيرُ القلوبَ، وتسمو بالعقولِ إلى مدارجِ الإيمانِ والحكمةِ.

٦. الشموليَّةُ، يتفرَّدُ القرآنُ الكريمُ بشمولِ مضامينِه واتساعِ آفاقِه؛ فيتناولُ العقيدةَ والعبادةَ، والأخلاقَ والمعاملاتِ، والقصصَ والعِبَرَ، وقضايا الحياةِ والحضارةِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ، في منظومةٍ شاملة تُوجّهُ الإنسانَ وتبني حضارتَه على أساسٍ من الإيمانِ والعدلِ والخيرِ.

٧. التكاملُ المنهجيُّ، تتكاملُ أحكامُ القرآنِ الكريمِ ومقاصدُه تكاملًا بديعًا، فيكمّلُ بعضُها بعضًا، دونَ تناقضٍ أو تعارضٍ، في نظامٍ ربانيّ محكمٍ يجمعُ بينَ دقَّةِ التشريعِ، ووضوحِ المنهجِ، وإحكامِ المقاصدِ؛ بما يحقّقُ العدلَ والتوازنَ في حياةِ الإنسانِ والمجتمع.

٨. التأثير الروحي والموعظة الحسنة: القرآن الكريم يجمع بين الحكمة البالغة والبيان المؤثر والوعظ الرقيق الذي يغمر القلب بسكينته، ويضيء النفوس بأنواره، ويشرح الصدور، يوقظ الضمائر ويقوّي الوجدان ويهذّب الروح وبشكل تدريجي؛ ليقود الإنسان إلى الطريق المستقيم.

٩. الهداية العملية والتدرج المبهر، يرشد القرآنُ الكريم الإنسانَ في شؤون دنياه وآخرته إلى الصراط المستقيم، مبيّنًا له طريق الحق والخير والعدل والعمل الصالح الذي يحقّق السعادة في الدارين.
ويتفرد القرآن بمنهجية التدرج، لتقويم العادات المترسخة وتديلها أو تُغييرها تدريجيًّا، مع مراعاة قدرات الإنسان وظروفه وطبيعته، ويشمل هذا التدرج (التشريع – والتحريم)، كما في فرض الفرائض، وكما في تحريم الربا والخمر؛ إذ جاء تدريجيًّا لتهيئة النفوس لقبول التغيير والتأقلم مع المبادئ الربانية، بأسلوب تربوي حكيم.
١٠. التواتر: تكفَّلَ اللهُ تعالى بسلامة كتابِه الكريمِ من التحريفِ والتبديلِ، فانتقلَ القرآن عبر العصور بالتواتر الدقيق من جيلٍ إلى جيلٍ، في الصدور والسطور، ليبقى شاهدًا خالدًا على صدقِ الوحيِ وإعجازِه، ونورًا مستمرًّا لا ينطفئ عبرَ الزمان.
١١. الخلود والصلاحية لكل زمان ومكان: ومن أهم فرائد القرآن الكريم أنه يبقى معجزة خالدة، صالحة لهداية الإنسان في كل زمان ومكان، تفيض معانيه وأنواره بالهُدى والنور، فهو دستور دائم لتنظيم الحياة عبر العصور.
١٢. الحوارُ القرآنيُّ الملهمُ، يُقدِّمُ القرآنُ الكريمُ أرقى نماذجِ الحوارِ الرشيدِ، فيواجهُ الشكَّ والضلالَ بالحجَّةِ البيّنةِ والمنهجِ الواضحِ، ويهدي العقولَ إلى الحقِّ برفقٍ وحكمةٍ وإقناعٍ.
١٣. القصصُ القرآنيُّ، يعرض قصصَ الأنبياءِ والأُممِ السابقةِ بأعلى درجاتِ الصدقِ والدقّةِ؛ للتهذيبِ والاعتبارِ واستلهام العبر التي تنفع الإنسان في كل العصور.
١٤. أرقى مناهجِ التفكُّرِ العقليِّ: يرسُمُ القرآنُ للإنسانِ أسمى طرائقِ النظرِ وإعمالِ العقلِ، ويدعوه إلى التأمُّلِ في آياتِ اللهِ في الكونِ والنفسِ والتاريخِ؛ ليزدادَ بصيرةً بعظمةِ الخالقِ، ويقينًا بحكمتِه، ووعيًا بسننِه في النفس والخلق والحياةِ.
١٥. التوجيهُ الأخلاقيُّ، يربّي القرآنُ الكريمُ الإنسانَ على مكارمِ الأخلاقِ، ويزجرُه عن الرذائلِ، ليبني شخصيَّةً راقيةً تتَّسقُ مع مقاصدِ الإيمانِ والفطرة الإنسانيةِ السليمة.
١٦. التشريع الكامل، يُقدِّم القرآنُ الكريمُ نظامًا ربانيًّا متكاملًا لتنظيمِ العلاقات الفردية والاجتماعية؛ بل والحياة، قائمًا على العدل والرحمة والإنصاف في شؤون الحكم والمعاملات والحقوق، ويضمن صلاحَ الإنسانِ والمجتمع، ويحقّق استقامةَ الحياة على هدي الوحي الإلهي.
١٧. الرحمةُ العامَّةُ، فرسالةُ القرآنِ موجَّهةٌ إلى البشرِ كافَّةً، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، تُجسِّدُ رحمةَ اللهِ الواسعةَ بعبادِه، وتدعو إلى الإحسانِ، والتعارفِ، والتعايشِ، ونشرِ الخيرِ بينَ الناسِ جميعًا.
١٨. إثباتُ النبوَّةِ، فيُقيمُ القرآنُ الحجَّةَ البالغةَ على صدقِ نبوَّةِ سيدنا محمدٍ (ﷺ)، مُؤكِّدًا أنَّه خاتمُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أجمعين، ورحمةٌ للعالَمين.
١٩. الإشاراتُ العلميَّةُ الدقيقة، سبقَ القرآنُ الكريمُ العلومَ الحديثةَ في الإشارةِ إلى حقائقٍ كونيَّةٍ وعلمية دقيقةٍ، في توافقٍ مدهشٍ مع ما كشفَه العلمُ لاحقًا، شاهدًا بجلاءٍ على أنَّه وحيٌ إلهيٌّ معصوم، لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفِهِ.
٢٠. التجدد المستمر والعطاء المتواصل، فالقرآن الكريم نور من الله، تتجدد معانيه وأنواره ويفيض بعطائه باستمرار، ليكون نبع الهداية المتجددة ومصدر النور المستمر الذي لا ينقطع، ملهماً للبشر على الدوام بما يساعدهم على تجاوز تحديات حياتهم اليومية..

ماذا سيكون حال العالم إذا لم يمتن الله على البشرية بالقرآن العظيم؟

لقد أنعم الله (تعالى) على المسلمين، بل على البشرية بنعمة القرآن الكريم؛ الذي يتضمن الهداية والتربية، والرحمة والعدل، وإصلاح الفرد وبناء المجتمع والأمة.

فلو لم يُنزِل الله هذا الكتاب العزيز، لعاشت البشرية في تيهٍ حضاريّ وضلالٍ روحيّ، تتخبطها الأهواء، ويستبد بها الطغيان، وتختفي فيها معاني الرحمة، ويضيع الإنسان في غابة الماديات.

إن القرآن هو الميزان الذي أقام الله (تعالى) به القسط في الأرض، وهو النور الذي أضاء ظلمات الجاهلية، وهو الحبل الذي مَن تمسّك به نجا، ومن أعرض عنه هلك.

ومن هنا نتساءل تأملا: ماذا لو لم ينزل الله علينا هذا الكتاب العزيز؟ وكيف كانت ستكون حال النفوس والعقول والمجتمعات؟ وكيف كانت ستغدو البشرية بلا وحيٍ يرشدها، ولا نورٍ يهديها، ولا ميزانٍ يضبطها؟

فيما يلي الإجابة عن هذه التساؤلات.

خمسة وعشرون أثرًا كارثيا لو لم ينزِّل الله لنا القرآن الكريم

أولًا: في الجانب الإيماني والروحي

١. لمَا تعرف الإنسان على خالقه، ولفقد الإنسان صلته به، ولعاش في ظلمة الجهل بالله تعالى.

٢. ولضاعت معالم التوحيد، وعاد الناس إلى عبادة الحجر والبشر والهوى.

٣. ولخلا القلب من السكينة والطمأنينة التي يزرعها ذكر الله.

٤. ولما عرف الإنسان من أين جاء، والغاية من وجوده، ولا المصير بعد موته.

٥. ولعاشت البشرية في قلقٍ دائمٍ لا دواء له، إذ انقطعت عن الوحي واليقين.

ثانيا: في الجانب الأخلاقي والتربوي

٦. لفسدت الفطرة، وانحرفت القيم، وغابت الموازين بين الخير والشر.

٧. ولانتشرت الرذيلة بلا رادع، لأن القلوب بلا تربية على منهج الله تصبح قاسية جافة.

٨. ولتغلبت الشهوات على العقول، واستُبدلت الأخلاق بالمصالح.

٩. ولضاعت الأسرة التي يقوم كيانها على الرحمة والهداية القرآنية.

١٠. ولتربى الأبناء على نزعات القوة المادية لا على معاني الإيمان والإحسان.

ثالثا: في الجانب التشريعي والعدلي

١١. لضاع العدل في الأرض، إذ لا ميزان ولا تشريع يضبط الحقوق والواجبات.

١٢. ولساد قانون الغاب، يحكم فيه الأقوى، ويُسحق فيه الضعيف.

١٣. ولتحولت العدالة إلى صفقات ومصالح لا إلى قيم ومبادئ.

١٤. ولما وُجدت القوانين التي تصون النفس والمال والعِرض والكرامة.

١٥. ولما عُرفت قيمة الرحمة في الحكم، ولا معنى الإصلاح في القضاء.

رابعًا: في الجانب الإنساني والاجتماعي

١٦. لانهارت روابط الأخوة، وسادت الأنانية والجفاء.

١٧. ولضاعت قيمة التعاون والتكافل والإحسان.

١٨. ولساد الصراع الطبقي والتمييز العنصري بين الناس.
١٩. ولانطفأت روح الرحمة في العلاقات الإنسانية، وعمَّ القهر والاستغلال.
٢٠. ولما وُجدت القدوة الصالحة التي تهدي الأجيال والمجتمعات إلى سواء السبيل.

خامسا: في الجانب العلمي والحضاري

٢١. لتاه العقل الإنساني بلا منهج، ولغرق في ظنونٍ وشكوكٍ لا نهاية لها.
٢٢. ولما قامت حضارة العلم على قاعدة (اقرأ)، ولظلّ الجهل سيد الموقف.
٢٣. ولما وُجدت القوانين الكونية التي تحث على التفكر والتدبر والاكتشاف.
٢٤. ولتحولت المعرفة إلى أداةٍ للتدمير لا للبناء، وللحرب لا للسلام.
٢٥. ولغاب عن الإنسان ميزان القيم الذي يُهذِّب العلم بالرحمة والضمير.

وهكذا.. لو لم يُنزِّل الله هذا الكتاب العزيز، لعاشت البشرية في ظلمةٍ فكريةٍ وأخلاقيةٍ وحضارية لا نهاية لها، ولضاع الإنسان بين عبودية الشهوة والقوة، ولما ذاق طعم السعادة الحقيقية قط.

فالقرآن هو الرحمة المهداة، والنور الهادي، والميزان العادل، وهو الذي صنع أمةً وسطًا تهدي بالحق وتعمل بالعدل وتنشر الرحمة.

وإن وجود القرآن الكريم لهو أعظم برهان على رحمة الله (سبحانه وتعالى) بعباده وحنانه بهم، فبه استقامت العقول، وتهذبت القلوب، وتأسست الحضارة على العدل والرحمة والسعادة... وبدونه لكانت الأرض خرابًا، والقلوب سرابًا، والحياة ظلما وظلامًا لا يُطاق.

(مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ)

يقول الحق تبارك وتعالى لسيدنا محمد (ﷺ): (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) (طه: ٢)، وهي إشارةٌ وبشارةٌ للعالم كلِّه بأنَّ القرآنَ الكريمَ ما نزلَ إلّا للسعادةِ والتعايشِ والأمنِ والسلامِ والوئام؛ فهو ليس مصدرًا للشقاء، بل سبيلُ السعادةِ والطمأنينةِ والرشاد.

لقد تجلّت في هذه الآيةِ الكريمة رسالةٌ ربّانيةٌ إلى الإنسانيّة جمعاء، تؤكّد أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يُنزَّل ليُثقِلَ كاهلَ الإنسانِ أو ليُرهقَ فكرَه، وإنّما ليُضيءَ له دربَ الحياة، ويهديه إلى السعادةِ الحقيقية.

إن القرآن الكريم كتابُ رحمةٍ لا عذاب، وبناءٍ لا هدم، وهدايةٍ لا تيه، من تمسّك به سَعِدَ وهُدِي إلى صراط الله المستقيم، ومن أعرض عنه شقي وباء بالخسران المبين، وعاش عيشة ضنكا..

لذلك يؤكد النبي هذه الحقائق السابقة بقوله (ﷺ): (تركْتُ فيكم أَمرينِ، لَن تضلُّوا ما تمسَّكتُمْ بِهِما : كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ رسولِهِ) [٥].

١. فإذا أردت السعادة فالقرآن يكفيك
٢. وإذا أردت الشفاء فالقرآن يكفيك
٣. وإذا أردت السكينة فالقرآن يكفيك
٤. وإذا أردت الحفظ فالقرآن يكفيك
٥. وإذا أردت الغنى فالقرآن يكفيك
٦. وإذا أردت لغة فالقرآن يكفيك

(٥) أخرجه مالك في الموطأ – إسناده حسن.

٧. وإذا أردت بلاغة فالقرآن يكفيك
٨. وإذا أردت حكمة فالقرآن يكفيك
٩. وإذا أردت تربية فالقرآن يكفيك
١٠. وإذا أردت أخلاقا فالقرآن يكفيك
١١. وإذا أردت قيما فالقرآن يكفيك
١٢. وإذا أردت السلام فالقرآن يكفيك
١٣. وإذا أردت الوئام فالقرآن يكفيك
١٤. وإذا أردت السعادة فالقرآن يكفيك
١٥. وإذا أردت الأنس بالله فالقرآن يكفيك
١٦. وإذا أردت البركة في حياتك فالقرآن يكفيك
١٧. وإذا أردت راحة البال فالقرآن يكفيك
١٨. وإذا أردت التوفيق في الدنيا والآخرة فالقرآن يكفيك....

أين المشكلة إذنْ؟

آلياتُ ومنهجيّاتُ التحريفِ والتأويلِ عند المتطرّفين

المشكلة ليست أبدًا في القرآن، ولا في الإسلام ولن تكون فيهما. المشكلة في المتطرفين. لقد استخدمَ المتطرّفون والإرهابيون وسائلَ متعدّدةً لإخراجِ القرآنِ الكريمِ عن مقاصدِه العليا؛ فبدّلوا المعاني، وحرّفوا الغايات، وأساؤوا توظيفَ النصوص، حتى صار كتابُ الرحمةِ والهدايةِ في أيديهم وبفكرهم الشاذ وتأويلاتهم الغريبة والخطيرة، مصدرًا للترهيبِ والتدمير.

ومن أبرز تلك الوسائل الخطيرة ما يلي:

١. اقتطاعُ الآيات من سياقها:

وهي أخطرُ وسائلِ التحريف، وفيها يُنتزَع جزءٌ من آيةٍ –مثل: لا تقربوا الصلاة– أو آيةٌ كاملةٌ من سياقها الذي نزلت فيه، دون معرفةِ سببِ نزولها، أو الغايةِ التي جاءت لتحقيقها، فتُتَّخذ الآيةُ التي نزلت لحادثةٍ بعينها قاعدةً عامّةً تُطبَّق في كلِّ زمانٍ ومكان، فينقلبُ مقصودُها إلى ضدِّه.

٢. الجمودُ على ظاهرِ النصِّ دونَ مقاصده:

ويحدثُ ذلك حين يُقرأ النصُّ القرآني قراءةً جامدةً لا تُراعي مقاصدَه الكبرى، كتحقيقِ الرحمةِ والعدلِ ورفعِ الحرج، فيفسِّرون آياتِ الوعيدِ والجزاءِ على أنها دعوةٌ إلى القسوة، مع أنها جاءت لتربيةِ الوجدان، لا لإشاعةِ الخوفِ والرعب.

فمثلًا، الآياتُ التي تتحدثُ عن عذابِ الكافرين في الآخرة ليست دعوةً إلى تعذيبِ الناس في الدنيا، بل هي تحذيرٌ تربويٌّ يدفع الناسَ لكي تعود إلى الله، وتلتزم طريقَ الهدايةِ والاستقامة.

٣. الانتقاء المتعمد للنصوص:

ومن مظاهرِ التحريف الخطير أن ينتقي المتطرّفون بعضَ النصوصِ التي تُوافق أهواءَهم، ويتجاهلوا عشراتِ الآياتِ التي تأمرُ بالرحمةِ والعدلِ والإحسان. فيُبرِزون آياتِ الحربِ، ويُخفون قولَه تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: ٣٤)، وقوله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(النحل: ١٢٥) ، وقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، يخفون هذه الآيات وغيرها كثير، وكأن هذه الآيات لم تنزل أصلا!!.

وهذه الطريقةُ تُشبه مَن يقرأ صفحةً واحدةً مِن كتابٍ ثم يدّعي أنه فهمَ الكتابَ كلَّه!.

٤. التوسع في التكفير:

يُبسِّطُ المتطرّفون مفهومَ الكفرِ فيوسّعونه حتى يشملَ كل مَن يخالفونهم في الرأي أو ينتقدون منهجَهم، فيجعلون من ذلك مبررًا للقتلِ أو الإقصاءِ. ومع أنَّ التكفيرَ حكمٌ خطيرٌ لا يَجُوزُ إلاّ ببرهانٍ قاطعٍ وضوابطَ شرعيّةٍ دقيقةٍ، فإنّ كثيرًا من هؤلاء يجعلونه قرارًا قائمًا على هوى النفوس أو خلافٍ فكريّ.

إنَّ تحويلَ المواقفِ الاستثنائيّةِ إلى قاعدةٍ دائمةٍ يخرِجُ الدينَ عن رحمته وإنسانيّته

٥. استخدام الفتاوى الفقهيّة المبتورة أو القديمة في غير محلّها:

يأخذُ بعضُ المتشدّدين أحكامًا فقهيةً صيغت في عصورٍ ماضيةٍ، وفقَ ظروفٍ وأحوالٍ اقتضتْها الظروف آنذاك، فكانت صالحةً في زمانها وسياقها؛ بسبب ما شهده المسلمون –على سبيل المثال– من أحداث ليس لها نظير، ومنها اجتياح التتار والمغول وغيرهم لمقوّماتِ الحضارةِ الإسلامية، وإمعانِهم في القتلِ والنهب والإذلال والتدميرِ حتى ألقَوا المخطوطاتِ في نهرِ دجلةَ ليجعلوا منها جسرًا تعبرُ عليه خيولُهم.

ثم يُسقِطُ هؤلاء المتطرفون تلك الأحكامَ التي ضيغت مثلا في ذلك الوقت على واقعٍ مغايرٍ تمامًا، أو يُهمِلون القواعدَ الكلّيّةَ للشريعةِ الغرّاء، مثلَ قاعدةِ رفعِ الحرج، وحفظِ النفس، ودرءِ المفاسد، فيتحوّلُ الاجتهادُ التاريخيُّ إلى جمودٍ فكريٍّ يَحجُبُ روحَ الشريعةِ ومقاصدَها الرحيمة.

٦. نشر الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة:

حيث يستدلّون بأحاديثَ لا تثبتُ عن النبي (ﷺ) لتبريرِ القتلِ أو التفجيرِ، مع أنَّ الإسلامَ يُحرِّمُ العدوانَ حتى على الحيوانِ والنبات، فكيف بالإنسان!

٧. استغلالُ المشاعر والظروف الاجتماعيّة:

يستغلّ المتطرّفون مشاعرَ الظلمِ أو الفقرِ لدى بعضِ الشباب، ويغذّون فيهم روحَ الانتقام، فيحوّلون الألمَ إلى وقودٍ للعنف والإرهاب –والعياذ بالله–، بدلًا من أن يكون دافعًا للإصلاحِ والصبرِ والعمل.

بينما وجّهَ القرآنُ المظلومين إلى الصبر، ووعدهم بالنصرِ لا بالانتقام.

٨. توظيفُ الإعلام في نشر الكراهية:

تُستَخدم وسائلُ التواصلِ الاجتماعي لبثّ صورٍ ومقاطعَ تُغذّي العنفَ وتُجمِّل القتلَ باسم "البطولة"، وتُخفي النصوصَ التي تنهى عن العدوان.

ومن ثمّ، فإنّ على المؤسساتِ الدينيةِ والإعلامية أن تُقدِّم خطابًا بديلًا يبرزُ جمالَ الإسلامِ ورحمتَه وعدلَه.

٩. تقديس الأشخاص والزعامة البشرية:

يُقدِّس بعضُ أتباعِ الجماعاتِ المتطرفة زعيمَهم حتى يصبحَ رأيُه عندهم بمنزلةِ النصّ المقدس!!، فيفقدون القدرةَ على التفكيرِ أو المراجعة، مع أنَّ الإسلامَ دعا إلى الشورى والتفكرِ والنقد البناء، فقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: ١٥٩).

١٠. تجاهلُ مقاصد الشريعة الكبرى:

إنَّ من جوهرِ الشريعةِ الإسلاميةِ ومقاصدِها العليا حفظَ الكلّياتِ الخمس: الدِّين، والنَّفس، والعقل، والعِرض، والمال؛ فهي الأسسُ التي قامت عليها شريعةُ الإسلام، وأيُّ فهمٍ للنصوصِ يُناقضُ هذه المقاصدَ أو يُهدِّمُها فهو باطلٌ ومردود؛ لأنَّ الشريعةَ جاءت لحمايةِ الإنسانِ وصونِ كرامتِه، لا لإهلاكِه أو الإضرارِ به.

ومن ثم فلا يمكن أبدا أن يكون القتلُ وسيلةً لحفظِ الدين –حاشا لله–، ولا أن يُطلبَ رضا الله بإزهاقِ الأرواحِ البريئة.

١١. صناعةُ الفتاوى السرية لتبرير العنف:

تُصدر بعضُ الجماعاتِ الإرهابية فتاوى في دوائر مغلقةٍ دون علمٍ، تُجيز القتلَ أو التفجيرَ باسم الدين، وهي أبعدُ ما تكون عن الدين والقرآن وروح الشريعةِ وعدلِها ورحمتِها.

خلاصةُ القول: لقد حرّف المتطرّفون والإرهابيون مقاصدَ القرآنِ الكريم؛ لأنهم قرأوه بعيونِ الغضبِ لا بعيونِ الرحمة، وبعقولٍ منغلقةٍ لا بنفوسٍ منفتحةٍ. ولو قرأوه كما أراد اللهُ لوجدوا فيه:

- كتابًا يُحيي لا يُميت.
- ويُصلح لا يُفسد.
- ويُحبّب في الخير لا يُغري بالشر.
- ويُقرّب بين القلوب لا يُفرّقها.

فالقرآنُ كتابُ هدايةٍ ورحمةٍ وعدالةٍ وسعادةٍ، ومن جعله سلاحًا للكراهيةِ أو الشقاء أوالقتلِ فقد أساء إلى اللهِ ورسولِه، قبل أن يُسيءَ إلى الناس.

وهؤلاء المتطرّفون والإرهابيون قلة قليلة جدا، نسأل الله أن يقتلع شأفتهم في بلادنا وبلاد المسلمين، ويعين مؤسساتنا المعنية عليهم.

كيف تجعلُ الأمةُ القرآنَ الكريمَ منهاج حياتها ومحورَ نهضتها وميزانَ وعيها؟

إن إعادةَ القرآنِ الكريمِ إلى مكانِه الأصيل ليكون دائما منهاج حياتها ومحورَ نهضتِها وميزانَ وعيِها ليست مهمّةً وعظيّةً فحسب، بل مشروعًا حضاريًّا شاملًا، يستلزم جهودَ العلماءِ والمربّين والمفكّرين والإعلاميّين والمؤسساتِ التعليميّةِ والروحيّة معًا.

ويقومُ هذا المنهجُ الإصلاحيُّ على محاورَ متكاملةٍ، من أهمِّها:

- تصحيحُ الفهمِ من منابعِه الأصيلة.
- إحياءُ تدبّرِ القرآنِ لا مجرّدِ تلاوته.
- تربيةُ الوجدانِ القرآنيّ في النشء.
- تصحيحُ صورةِ الدينِ في الإعلامِ والخطابِ العام.
- ترسيخُ القواعدِ القرآنيّةِ الكبرى في التعليم.
- مواجهةُ التأويلِ المنحرفِ بالعلمِ لا بالعنف.
- ربطُ القرآنِ بالواقعِ الإنسانيّ.
- إحياءُ القدوةِ القرآنيّةِ في السلوك.
- بناءُ الوعيِ الجمعيّ ضدَّ استغلالِ الدين.
- العنايةُ بالدعاءِ والتزكيةِ والإصلاحِ الداخليّ.

الغرب والقرآن

كيف نواجه الإسلاموفوبيا

ونصحح مفاهيم الغرب عن القرآن الكريم والإسلام؟

في الحوار الذي أجراه معنا الكاتب الصحفي الأستاذ/ حسني كمال، ونُشر في بوابة الأهرام عام ٢٠١٨م، والذي جاء كرد فعل، على مطالبة ٣٠٠ شخصية فرنسية بحذف آيات من القرآن الكريم، أكدنا أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالد، الذي (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤٢)، وقد ميَّزه اللهُ (تعالى) بميزات لم ولن تكن لغيره:

- فحفظه بحفظه، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩).
- ويسَّر تلاوته.
- كما أنه الكتاب الوحيد على وجه الأرض المحفوظ في الصدور تواترًا.
- وجعله أعظم كتاب، وأجمل كتاب، وأكمل كتاب، وأشرف كتاب.
- أحدثَ اللهُ تعالى به رباطًا مقدسًا بين الأرض والسماء.
- وجمع له كلُّ أنواع الشرف العظيم: الشرف الإلهي، والشرف الإلهي، والشرف الملائكي، والشرف البشري، والشرف الزماني، والشرف المكاني..

موجات من العداء الغربي على القرآن:

لقد تواترت على القرآن الكريم موجات العداء عبر التاريخ، واتخذت أشكالا شتى، حيث جرَّب الغرب مع المسلمين العداءَ الخشن تارة فلم ينجح، كما جرب العداءَ الناعم تارات أخرى ولن يفلح أبدًا بإذن الله.

ولقد سبق لرئيس الوزراء الإنجليزي (جلادستون ١٨٠٩ –١٨٩٨م) أن قال: "إننا لن نستطيع هزيمة المسلمين طالما ظلوا متمسكين بهذا القرآن"!.

أما "الحداثيون" من الغربيين والمتغربين –كما يقول د. محمد عمارة– "فقد أدركوا عبثية الهجوم الفج والصريح على القرآن الكريم، وكيف أن هذا يزيد المسلمين استمساكًا به واعتصامًا بحبله؛ فذهبوا مذهب التأويل العبثي، الذي يفرغ القرآن الكريم من حقائق محتواه، ويحوله إلى رموز لا حقيقة فيها.. وإلى تاريخ لا صلاحية له في الحاضر والمستقبل".

ويجندون لذلك أبواقًا "مأجورين" منهم، ومِن بني جِلدتنا، وهو مما يؤسف له كثيرًا، ولكن هيهات هيهات.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، ففي الأونة الأخيرة طالب بعض الغربيين بـ:

- إبطال سور من القرآن الكريم.
- أو تجميد آيات بعينها.
- أو الحكم عليها بالتقادم ومن ثم إحالتها للتقاعد.

بحجة أنها أمست قديمة لا تواكب الزمن، أو أنها تعادي السامية، أو أن بعض الإرهابيين يفسرونها بما يسمح لهم بقتل اليهود والمسيحيين والملحدين ومعاقبتهم!!.

وما هذه المطالبة الغربية الغريبة إلا محض هذيان!، ومحاولة إلهاء العالم عن مشكلات بعينها عجز هؤلاء الفاشلون عن حلها...!.

فثمة فرق كبير جدًّا بين كلامِ البشرِ وكلامِ ربِّ البشرِ، فالأوَّلُ محدودٌ بقدراتِ الإنسانِ وعقولِه القاصرة، وأمّا الثاني فهو كلامُ اللهِ المعجِزُ، الكتابُ المقدَّسُ: القرآنُ الكريم، الذي لا يَأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه. أمّا فَهمُ البشرِ –وبخاصّةٍ غيرُ الأنبياءِ– للقرآنِ الكريمِ ولغيرِه من النصوصِ، فليس فهمًا مقدَّسًا، بل هو اجتهادٌ بشريٌّ يصيبُ ويُخطئُ، وهذه حقيقةٌ يجب أن نتَّفِقَ عليها جميعًا.

الخراب والتدمير منهم، وهم يتحدثون عن العنف والقتل!

فنتساءل: عن أيّ عنفٍ وقتلٍ يتحدثون؟!

- عن عنفِهم الذي دمَّروا به العراقَ وفلسطينَ والسودانَ وليبيا وسوريا، وشرّدوا أهلَها، وقتلوا الأطفالَ والصبيان والشيوخَ والنساء والضعفاء؟.
- أم عن عنفِهم في اليمنِ وأفغانستان، واحتلالِهم لفلسطينَ والقدسِ الشريف؟.
- أم عن العدوانِ الثلاثي على مصر؟.
- أم عن اعتداءاتِهم المتكررةِ على السودان ولبنان وغيرها؟!
- وما جرى مؤخرًا في غزةَ ليس عن ذلك ببعيد.

ولا في ريب أن استعراض حقائق التاريخ البشري في سياقها العلمي العادل يؤكد أن المسلمين عبر عصور طويلة وإلى هذه اللحظة كانوا، وما زالوا هم أول ضحايا الظلم والعدوان، وأكثر مَن عانوا المظلومية بسبب كيل ساسة الغرب بمكيالين، وما قضية فلسطين والقدس وحق الفيتو منَّا ببعيد!!.

ألاعيب السياسة وأجندات الانتخابات والمصالح في الغرب

إننا نوقن تمامًا أن ليس كل الغرب ضد المسلمين، فهناك:

- **المثقَّفون والمنصفون** الذين لا تنطلي عليهم ألاعيبُ الساسةِ ولا خُدعُ السياسةِ هناك، ولا تُغريهم الأكاذيبُ المصنوعةُ بعنايةٍ في مصانعِ الكذبِ التي أنشأها بعضُ الغربيين، حيث تُصاغُ وتُصنعُ وتُعبَّأُ وتُغلَّفُ وتُصدَّرُ وتُنشرُ لخداعِ الشعوبِ المغلوبة على أمرها، وتزييفِ وعيها!.
- وهناك **عامةَ الغرب** فليس لدينا معهم مشكلة، ويجب ألا تكون؛ بل هم:
  - ضحايا التزوير والتدليس في الإعلام الغربي، وفي بعض المناهج الدراسية الغربية.
  - وأيضًا هم ضحايا غيابنا وتأثيرنا نحن.

ولكن أوقن أن الإنسان الغربي لا يزال لديه من رصيد الفطرة ما يجعله يقبل الحقيقة إذا عرضت عليه في سياقها العلمي والمنطقي [٦].

- كما أن هناك **طيفًا واسعًا من الساسة، وأصحاب المصالح والأجندات، وبعض الأحزاب وخبراء الانتخابات**، يُجيدون الإمساكَ بزمامِ اللعبةِ السياسية، ويفتعلون المواقفَ في الأوقاتِ المناسبة، ويستغلّون الظروفَ، ويخلقون السياقاتِ المواتيةَ لتحقيقِ مآربِهم؛ بغيةَ كسبِ الأصواتِ الانتخابية. ولدى هؤلاء أساليبُ ماكرةٌ وألاعيبُ خطيرة، من أبرزِها استخدامُ "فزّاعة الإسلام"، وهي ورقةٌ جاهزةٌ لديهم، يُخرِجونها ويُروّجونها في اللحظةِ المناسبة؛ لاستمالةِ رجلِ الشارعِ وكسبِ تعاطفِه. والمُريبُ أن بعضَ الأحزابِ هناك تستميلُ الناسَ بالعداءِ للإسلام، في ظلِّ غيابِ إستراتيجيةٍ إسلاميةٍ موحَّدةٍ تُعرِّفُ بهذا الدينِ الخالدِ وتُبرزُ قيمَهُ الحضارية. والسؤالُ الذي يفرضُ نفسه: لِماذا تظهرُ مثلُ هذه الفرقعاتِ الإعلاميةِ في توقيتٍ محدَّدٍ، وفي بلدٍ بعينِه، يتزامنُ مع اقترابِ الاستحقاقاتِ الانتخابية؟!

(٦) لمزيد من المعلومات راجع كتاب: الإسلام والغرب حوار لا مواجهة، للدكتور إبراهيم محمد سالم.

يقول أستاذنا العلامة الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله): لقد تكاتف ساسة الغرب وتجار الاستعمار على محاربة القرآن بالحيلة والقوة معا.. ألست ترى اللصوص إذا أرادوا سرقة بيت اجتهدوا في تحطيم مصابيحه، أو قطع تيار الكهرباء عنه، حتى إذا عم الظلام وسرت الفوضى، اشتغلوا بالسلب والنهب وهم آمنون!!.

إن ذلك ما فعله الغرب وهو يمد يده الآثمة لسرقة العالم الإسلامي..

لقد ركز هجومه على القرآن نفسه؛ ليأتي على الجزء الباقي من استضاءة المسلمين به، حتى إذا أقام حجابًا كثيفًا بين الأمة المصابة، وقرآنها؛ خلا له الجو ففعل ما يشاء(٧).

الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام)

الإسلاموفوبيا تعني الخوف المَرَضي أو الكراهية أو التحيّز ضد الإسلام والمسلمين، وهي مجموعة من المواقف والممارسات السلبية التي تُوجَّه إلى الإسلام أو إلى مَن يعتنقونه، بسبب تصوّرات خاطئة أو مشوَّهة، تُقدّم الإسلامَ على أنه دين عنف أو تخلف أو تهديد للغرب!!.

مظاهرها:

- نشر الكراهية ضد المسلمين في وسائل الإعلام أو المناهج الدراسية أو السياسة.
- التمييز ضدهم في العمل والتعليم والسكن.
- الاعتداء اللفظي أو الجسدي على من يُظهرون هويتهم الإسلامية (كالمرأة المحجبة مثلًا).

ولقد بُحَّ صوتنا وصوت مؤسسات إسلامية كثيرة من أجل تنقية الكتب الدراسية التي تدرس للطلاب في الغرب خصوصًا كتب التاريخ، التي تشتمل على مغالطات كثيرة عن الإسلام (سيقت بدون فهم، أو بسوء قصد)، وأسهمت في زرع الخوف من الإسلام والمسلمين، وتجذير الكراهية في نفوس النشء الغربي منذ نعومة أظفاره، وكان ممّا ترتّب على ذلك انتشارُ ظاهرةِ الإسلاموفوبيا.

ومن جملةِ المغالطاتِ التي لن يغفرها لهم التاريخ:

- إطلاقُ الأحكامِ المسبقةِ –عن الإسلام وحضارته– دونَ علمٍ أو تثبّتٍ، وبناءُ التصوّراتِ على الأوهامِ والانطباعاتِ الزائفة، لا على الحقائقِ والوقائعِ الثابتة.
- ترويجُ التفسيراتِ المشوَّهة عن العربِ والمسلمين.
- تجريدُ الحضارةِ الإسلامية من منجزاتِها الإنسانيةِ والحضارية والعلمية الرائدة.
- قلبُ الحقائقِ التاريخية، لا سيّما ما يتعلّقُ بالحروبِ الصليبيةِ والقدسِ وغيرِهما.
- الخلطُ بين القرآنِ الكريمِ والسُّنّةِ النبويّةِ المشرَّفة.
- سردُ القصصِ الأسطورية التي لا أصلَ لها في المصادرِ التاريخية، وهي أقربُ إلى الخيالِ منها إلى الحقيقة، وغيرُ ذلك كثير.

وما زلنا نطالب بالتعديل، خصوصًا أن هذه الكتب الدراسية عمل بشري قابل للحذف والإضافة والتعديل والتبديل والتصويب والشرح...إلخ، ولكن من دون جدوى، وسنظل نطالب بالتعديل ولن نيأس...

العجيبُ حقًّا أنَّنا في الوقتِ الذي تُرفَضُ فيه مطالبُنا المشروعةُ لتصحيحِ ما هو بشريٌّ قابلٌ للنقاش، نُفاجأُ بتجرُّؤِ بعضِهم على المطالبةِ بتعديلِ كلامِ ربِّ البشرِ (القرآنِ العظيم)، أو حذفِ بعضِه، أو تجميدِه!!.

(٧) راجع: نظرات في القرآن لفضيلة العلامة الشيخ: محمد الغزالي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، يناير ٢٠٠٨م.

لابد من دراستها

ومن هنا، فإنني أُجدِّدُ المطالبةَ للمؤسساتِ الإسلاميةِ المعتمدةِ في عالمِنا الإسلامي، وفي مقدِّمتِها الأزهرُ الشريف، بأن تُعنى بدراسةِ هذه الظاهرةِ الخطيرة، من حيثُ دوافعها، ومراميها، وأسبابها، وما يُفرَز عنها من مطالباتٍ شاذةٍ، تدعو إلى حذفِ سورٍ أو آياتٍ من القرآنِ الكريم أو تجميدِها.

ويجب أن تُقدَّمَ في هذا الصدد الردودُ العلميةُ الرصينةُ، والبراهينُ المنطقيةُ والمنهجيةُ الحاسمةُ، لتفنيدِ تلك المزاعمِ الباطلةِ التي بُنيت عليها هذه الدعواتُ الجريئةُ والخطيرة.

وبذلك يمكن أن يُدرِكَ الغربُ –علميًّا ومنطقيًّا– أنَّ الخللَ ليس في النصِّ الإلهيِّ المقدَّسِ، بل في سوءِ فهمِه وتأويلِه من قِبَلِ قلّةٍ قليلة جدًّا من الناس، وأنَّ هذا النصَّ العظيمَ قد أنزله اللهُ (تعالى) لإصلاحِ الإنسانِ والكونِ والحياةِ، لا لإفسادِها أو إثارةِ الفتنِ حولها.

كما أُطالبُ المسلمين الذين يعيشون في بلادِ الشرقِ والغربِ أن يُقدِّموا أداءً حضاريًّا راقيًا في أعمالِهم ومجتمعاتِهم، وأن يُسهموا بإخلاصٍ في نهضةِ البلدانِ التي يعيشون فيها ويأكلون من خيراتِها؛ ليكونوا أنموذجًا مشرفًا يُجسِّدُ قيمَ الإسلامِ ومبادئَه السامية؛ ليصبح سلوكهم الراقي وأداؤُهم المتميزُ سببًا في أن تتوجَّهَ الأنظارُ إليهم بإعجابٍ وتقدير وإجلال، كما توجَّهت من قبلُ إلى أسلافِهم من التجارِ الأوائلِ الذين نشروا الإسلامَ في أنحاءٍ واسعةٍ من العالمِ بحُسنِ أخلاقِهم ونبلِ تعاملِهم. فذلك –بلا شكٍّ– كفيلٌ برسمِ الصورةِ الحقيقيةِ المشرقةِ عن الإسلامِ وعن نبيِّه العظيم (ﷺ).

أسباب الكراهية

من خلال جولاتِنا الدعويةِ في بلادِ الشرقِ والغربِ لنشرِ سماحةِ الإسلامِ والتعريفِ بحضارتِه في نحوِ خمسٍ وعشرينَ دولة، نستطيعُ أن نُقرِّرَ أنَّ هناك جملةً من الأمورِ التي تُرسِّخُ الكراهيةَ والخوفَ من الإسلام، ومن أهمِّها:

- عوائقُ التواصلِ اللغويِّ بين المسلمين وأهلِ البلادِ التي يعيشون فيها، وهي من أبرزِ العقباتِ التي تُعيقُ الاندماجَ الإيجابيَّ والتفاهمَ البنّاء. وقد لمسنا ذلك بوضوحٍ خلال لقاءاتِنا في رابطةِ الجامعاتِ الإسلامية مع عددٍ كبيرٍ من المسؤولين الهولنديين –إبّانَ أزمةِ الفيلمِ الهولنديِّ المسيء للإسلام «فتنة»– إذ أوضحوا لنا بجلاءٍ أنَّه "إذا تمكَّنَ المسلمون من إتقانِ لغةِ البلدِ بطلاقةٍ، فسيسهُلُ عليهم التعايشُ مع جيرانِهم بانسجامٍ وتفاهمٍ أكبر".
- وتبقى المشكلةُ الحقيقيةُ –في نظرِ كثيرٍ من الأوروبيين والغربيين– أنَّه لا توجدُ لديهم صورةٌ واضحةٌ أو موحَّدةٌ عن الإسلام؛ إذ يرون تعدُّدَ الفرقِ والمذاهبِ بين المسلمين: من سُنّةٍ وشيعةٍ، وسلفيّين وصوفيّين، وجهاديّين وغيرِهم، فيختلطُ عليهم الأمرُ، ويغيبُ عنهم جوهرُ الإسلامِ الأصيلُ الذي يجمعُ كلَّ هذه الاتجاهاتِ تحتَ مظلّةِ التوحيدِ والرحمةِ والإنسانية.

وبعدَ أحداثِ سبتمبر ولندن ومدريد، تكوَّنَ لدى كثيرٍ من الغربيين نوعٌ من الربطِ الخاطئ بين الإسلامِ والتطرّف، حتى صار الإسلامُ في أذهانِ بعضِهم يُترجَمُ –ظلمًا وجهلًا وافتراء– على أنَّه دينٌ لا يعترفُ بالديمقراطية، أو لا يقبلُ التعدديّةَ والحريّات. كما يُسقِطون صورةَ بعضِ الدولِ ذاتِ التجاربِ السياسيةِ المحدودةِ في الديمقراطيةِ على الإسلامِ نفسِه، متناسين أنَّ خللَ الممارساتِ لا يعني خللَ المبادئ، وأنَّ الإسلامَ في جوهرِه يقرُّ بالشورى والعدلِ والكرامةِ الإنسانيةِ، وهي قيمٌ تتجاوزُ أرقى المفاهيمِ الديمقراطيةِ الحديثة.

لذلك، فإنَّ المجتمعَ الغربيَّ بأسرِه في حاجةٍ ماسّةٍ إلى التعرّفِ على حقيقةِ الإسلامِ، من خلال حوارٍ أكاديميٍّ رصينٍ، وخطابٍ تجديديٍّ تنويريٍّ واعٍ، يُبرزُ القيمَ الأصيلةَ التي جاء بها هذا الدينُ العظيم؛ وفي مقدِّمتِها قيمُ التسامحِ، والتعدديّةِ، وقَبولُ الآخر، واحترامُ الإنسانِ أيًّا كان معتقدُه أو ثقافتُه... إلخ.

فالإسلامُ لا يمكن أبدًا أن يُرادف الانغلاقَ أو الإقصاء كلا؛ بل هو منهجٌ حضاريٌّ شاملٌ يستهدفُ إعمارَ الأرضِ، وبناءَ الإنسانِ، وتحقيقَ التعايشِ السلميّ بين الشعوبِ كافة.

وهنا تبرزُ أطروحةُ تعيينِ مَلحقٍ دينيّ نابهٍ في سفاراتِ الدولِ الإسلاميةِ في الخارج؛ لـ:

- ✓ شرحِ حقائقِ الإسلام.
- ✓ ودعمِ خطابِ التواصل والقضاء على خطاب التقاطع.
- ✓ وإبرازِ قيمِ التعدُّديةِ والتسامح.
- ✓ ومن ثَمَّ تصحيحُ المفاهيمِ، ورسمُ الصورةِ الحقيقيةِ عن ديننا الحنيف.

المجتمع الغربي العلماني وتحدّيات العلاقة مع المسلمين:

منَ الواجبِ علينا –نحنُ المسلمين– أن نُدركَ إدراكًا عميقًا طبيعةَ العلاقةِ بين المسلمين والأوروبيين؛ إذ يغلبُ على المجتمعاتِ الغربيةِ الطابعُ العَلمانيُّ الذي يرى –في نظرِ قطاع منهم– أنَّه لا حاجةَ إلى الدِّين، نتيجةً لما اقترفَه رجالُ الدِّينِ لديهم من تجاوزاتٍ وممارساتٍ قمعيّةٍ في العصورِ الوسطى.

وقد وقعَ هؤلاء في خطأٍ مزدوجٍ تمثَّل في التعميمِ والقياسِ مع الفارق؛ إذ قاسوا الإسلامَ الحنيفَ على تجاربِهم التاريخيّةِ المظلمة، دون تمييزٍ بين الدِّينِ الإلهيّ الخالصِ وما كان عليه رجال الدين وقتذاك.

وبذلك اجتمعَ في مواقفِهم خللان منهجيّان لا يليقان بمن يرفعون شعاراتِ المنطقِ والعلميةِ والموضوعيةِ والنزاهة، بينما هم –في هذا السياق– أبعدُ الناسِ عنها، إذا ما تعارضتْ مع مصالحِهم أو مخططاتِهم، في ممارسةٍ مألوفةٍ من سياسةِ الكيلِ بمكيالين التي اعتدناها منهم.

كما يعتقدون أيضًا أنَّ التطوّرَ المتوقعَ في أوروبا سيجعلُها في غنىً عن الدِّينِ بصفةٍ عامّة، غير أنَّهم باتوا يُدركون إشكاليّةً تؤرّقُهم، تتمثّلُ في أنَّ قدومَ المسلمين من مختلفِ الدولِ قد أحدثَ تحوّلًا ملحوظًا في المجتمعِ الأوروبي.

وليس الأمرُ مقتصرًا على الإسلامِ وحده، بل هناك أيضًا جماعاتٌ مسيحيّةٌ وافدةٌ من إفريقيا وغيرها، أسهمت في إحياءِ المبادئِ الدينيّةِ القديمة.

وهذا يعني أنَّ القضايا المتعلّقةَ بالدِّينِ أصبحت اليومَ تحت الأضواءِ في أوروبا، ومع تزايدِ أعدادِ المسلمينَ هناك، نشأ شعورٌ متنامٍ بأنَّ الدِّينَ لم يختفِ إلى الأبد، بل عاد ليشكّلَ حالةَ إحياءٍ دينيّ جديدة في المجتمعاتِ الأوروبيّة.

وقد أتاهم من الخارج دينٌ قويٌّ بعقيدتِه الراسخةِ وأفكارِه الواضحة، يرون فيه –وربما في غيره– تهديدًا لأيديولوجيّتهم ومستقبلِهم وحريّاتهم.

وتلك هي أبرزُ المخاوفِ التي استخلصناها من عقولِ وأدمغة كبارِ المسؤولين الهولنديين والأوروبيين، من خلال حواراتٍ أكاديميةٍ مباشرة أجريناها معهم في هولندا وبلجيكا وفرنسا والدنمارك، وكذلك في رحاب الأمانة العامة لرابطة الجامعات الإسلامية بمقرها في جامعة الأزهر الشريف، إبّان تولّي أستاذِنا الراحل أ.د/ جعفر عبد السلام – رحمه الله – أمانتَها العامة.

وقد شاركَنا في تلك الحوارات البروفسورُ الهولنديُّ المسيحيُّ الراحل "هينك فروم"، الذي أسّس كليةَ الدراسات الإسلامية (كلية الإلهيات) بالجامعة الحرة "فيو" في أمستردام، وهي من كبرياتِ الجامعاتِ الهولنديةِ وأكثرِها تأثيرًا. كما شاركَنا كذلك العالم الأزهريُّ المغربيُّ الهولنديُّ أ.د/ مرزوق أولاد عبد الله، أستاذُ الدراسات الإسلامية بالكلية ذاتها.

وكنتُ آنذاك أتولّى منصبَ (المدير التنفيذي لرابطة الجامعات الإسلامية)، وقد استطعنا –من خلال الحوارِ الهادئِ والنقاشِ الراقي– أن نُصحّحَ كثيرًا من المفاهيم المغلوطة، ليس فقط لدى بعض الغربيين، بل أيضًا لدى عددٍ

من المسلمين من الأجيالِ الحديثة التي تأثّرت بأفكارٍ دخيلةٍ وردت إليهم من فكرٍ جامدٍ بعيدٍ عن روحِ الإسلامِ السمحةِ وحضارتِه الزاهرة.

واجبنا المتأخر:

ويمكنُ تبديدُ هذه المخاوفِ من خلال استراتيجيّةٍ إسلامية متكاملةٍ للتعريفِ بالإسلامِ، تقومُ على الحوارِ البنّاءِ، وتجديدِ الخطابِ الموجَّهِ إلى الغربِ؛ ليُبنى على أسسٍ علميّةٍ ومنطقيّةٍ راسخة، منطلِقًا من فقهِ الواقعِ، ومن فهمِ أيديولوجيّاتِ الدولِ الغربيةِ وفلسفاتِها السائدة؛ بما يُمكِّن من مخاطبةِ العقولِ بلغتها، ويُزيلُ ما تراكم من صورٍ مشوَّهةٍ عن الإسلام.

كما تتطلّبُ هذه الاستراتيجيّةُ تعزيزَ التواصلِ الفعّالِ مع مجتمعاتِ الجالياتِ المسلمة في الغرب، لتلبيةِ احتياجاتِها الدينيةِ والفكريةِ والثقافية، وتوجيهِها نحوَ مقوّماتِ الرشدِ الحضاريّ والسلوكِ الراقي.

وإلى جانب ذلك، ينبغي العملُ على التعاونِ العالميّ لنشرِ ثقافةِ التعايشِ والسلام، وسنِّ القوانينِ الدوليّةِ التي تُجرّمُ ازدراءَ الأديانِ والمقدّسات، مع إدارةِ الأزماتِ بأسلوبٍ علميٍّ ومنهجيٍّ رصينٍ يرسّخُ قيمَ العدالةِ والاحترامِ المتبادلِ بين الأممِ والشعوب.

ويبقى تعلُّمُ اللغاتِ العالميّةِ الحيّةِ، وإتقانُها، وتشجيعُ النابغين على التخصّصِ فيها، والتوسّعُ في دراستِها، وتطويرُ مناهجِها، منذ المراحلِ الأولى في السُّلَّمِ التعليميّ بالأزهرِ الشريف، هو المحكُّ الحقيقيُّ لنهضتِنا الدعويّةِ والفكرية.

فبذلك نستطيعُ إعدادَ جيلٍ من الدعاةِ والعلماءِ يمتلكون نواصيَ العلومِ الشرعيّةِ، كما يمتلكون نواصيَ اللغاتِ الحيّةِ، ويمتلكون نواصيَ التكنولوجيا، فيُعبّرون عن الإسلامِ بلسانٍ عالميٍّ رصينٍ، ويُترجمون معانيَ القرآنِ الكريمِ وسائرَ النصوصِ ترجمةً دقيقةً أمينةً، تتّسقُ مع المعنى الدلاليّ الصحيح، وتُوضّحُ مرادَ الله (تعالى) بوضوحٍ وبيانٍ.

وبذلك يتمكّنون من الحوارِ مع العالمِ حوارًا راقيًا واعيًا، يُحقّقُ مبادئَ التعاونِ والتعايشِ والاحترامِ المتبادلِ والبناءِ المشتركِ، ويُسهمُ في ترسيخِ السلامِ وتعزيزِه في ربوعِ العالمِ كلِّه [٨].

أيها الأخوة المؤمنون: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمدًا (ﷺ) رسولُ الله.. عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله.. يقول الحق (تبارك وتعَالَى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢).

بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا يَسُوقُ الْخَيْرَ إِلَّا اللَّهُ. بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا يَصْرِفُ السُّوءَ إِلَّا اللَّهُ. بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، مَا كَانَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ. بِسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. أما بعد يا عباد الله...

---

(٨) راجع :تصريحنا في صحيفة الأهرام، يوم ٢٠١٨-٥-٨ في حوارٍ أجراه الكاتب الصحفي حسني كمال، بعنوان: "ردًّا على مطالبة ٣٠٠ شخصية فرنسية بحذف آيات القتال من القرآن.. علماء: وردت في إطار رد العدوان وتحتاج إلى ردّ علميٍّ ومنطقيّ"، https://gate.ahram.org.eg/News/١٩٠٤٣٢٣.aspx

وكانت قد أثارت دعوى ٣٠٠ شخصية فرنسية عامة بحذف ٣٠ آية من القرآن الكريم تتحدث عن الجهاد غضبًا واستنكارًا في العالم الإسلامي، وأكد العلماء أن تلك المطالبات تدل على جهل وحقد على الإسلام والمسلمين، جاء ذلك حينما وقع الرئيس الفرنسي السابق، نيكولا ساركوزي و٣٠٠ شخصية فرنسية عامة، على عريضة نشرتها صحيفة "لوباريزيان" الفرنسية، للمطالبة بحذف ٣٠ آية من القرآن الكريم. تحدث المقال الذي نشرته الصحيفة الفرنسية تحت عنوان "ضد معاداة السامية الجديدة" عن "تطرف إسلامي"، ويدق ناقوس الخطر ضد ما تتعرض له الطائفة اليهودية في المنطقة الباريسية.

وقد جاء ردنا مع عدد من العلماء مدويا ومنطقيا في مواجهة هذه الهجمة الشرسة على القرآن العظيم.

وحث الموقعون – وبينهم رئيس الوزراء السابق مانويل فالس، والمغني شارل أزنافور، والممثل جيرار ديباردیو – سلطات المسلمين على منع وحذف ٣٠ آية من القرآن، بدعوى أنها "تحث على قتل ومعاقبة اليهود والمسيحيين والملحدين".

خمسون واجباً على المسلم تجاه القرآن الكريم

نعيش في زمن كثُر فيه الكلام، وقلَّ فيه حضور القرآن في حياة كثير من المسلمين، إلا من رحم الله. نسمعه أحيانًا في الراديو، أو على الإنترنت، ومن المآذن، أو في البيوت والسيارات، لكن قلوب بعض المسلمين انشغلت عن تلاوته، وتدبره، وحفظه، وتطبيق تعاليمه. ومما يؤسف له، أن القرآن أصبح عند كثيرين زينةً تُعلّق، وصوتًا جميلًا يُسمع، لا منهجًا يُتّبع، ولا رسالة تغيّر الإنسان وتبني الأمة.

لقد أنزل اللهُ (سبحانه وتعالى) القرآنَ؛ ليُغيّر واقع الناس، لا ليُتلى فحسب، وجعله علاجًا لكل داءٍ في القلب والعقل والمجتمع. فهو دستور شامل: يُقوّم الفكر، يُهذّب النفس، يُشيع الرحمة والعدل، ويصنع أمةً شاهدةً على الناس. ومن هنا، كان لزامًا على كل مسلم أن يعرف واجباته تجاه هذا الكتاب العظيم، وأن يؤمن به إيمانًا راسخًا، ويعظّمه بقلبه ولسانه، ويتلوه بتدبر، ويفقه معانيه ومراميه ومقاصده، ويعمل بأحكامه، ويدعو إليه، ويجعله منهاج حياته.. وإلى حضراتكم خمسون واجبًا ليست للحفظ والتعداد، بل هي خريطة حياة تعيد المسلم إلى أصل العلاقة بين العبد وربه؛ فمن أداها على وجهها الصحيح أحيا الله قلبه، وأنار دربه، وكتب له سعادة الدارين.

أولًا: واجبات الإيمان والتعظيم

١. الإيمان الجازم بأن القرآن كلام الله المنزل الأزلي الباقي وأنه غير مخلوق.
٢. تعظيم القرآن في القلب واللسان والعمل.
٣. اليقين بأنه دستور المسلمين والمصدر الأول للتشريع والهداية.
٤. تصديق كل ما ورد فيه دون تردد أو شك.
٥. استشعار أنه رسالة من الله إلى عباده لصلاحها وإصلاحهم وسعادتهم وهدايتهم.
٦. توقير مَن يُعلّم القرآن ويحفظه ويعمل به، ومن يعمل في خدمته.
٧. اجتناب كل ما يمس حرمة المصحف أو يُهين قدسيته.
٨. عدم الجدال في آيات الله بغير علم.
٩. الخشوع والخضوع والانكسار لله عند سماع القرآن وتلاوته.
١٠. استحضار مراقبة الله أثناء التعامل مع كلامه.

ثانيا: واجبات التلاوة والتدبر

١١. تلاوته بانتظام كأن يجعل الشخص لنفسه وردًا يوميًّا، مع الطهارة والسكينة والتدبر.
١٢. تحسين الصوت به امتثالًا لقوله (ﷺ): (زيّنوا القُرْآنَ بأصواتِكم) [٩].
١٣. ترتيله كما أُمر الله سبحانه وتعالى لنبيه (ﷺ): (... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) (المزمل: ٤).
١٤. تدبر معانيه وتأمل آياته دون عجلة، فعن أبي زد الغفاري (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (سَيَكونُ بَعْدِي مِن أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، لا يُجاوِزُ حَلاقِيمَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَخْرُجُ

(٩) أخرجه ابن كثير في الأحكام الكبير– إسناده جيد.

السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ فِيهِ، هُمْ شَرُّ الخَلْقِ والْخَلِيقَةِ) (١٠).

١٥. قراءة تفسير الآيات لفهم مقاصدها ومراميها.

١٦. الوقوف عند آيات الرحمة والدعاء بها.

١٧. البكاء أو التأثر عند سماع آيات الوعيد والرجاء.

١٨. تعويد الأولاد حب سماع القرآن وتلاوته وحفظه منذ الصغر.

١٩. تخصيص وقتٍ ثابت يوميًّا لتلاوته بتدبرٍ.

٢٠. مراجعة حفظه بانتظام لتثبيته في القلب.

ثالثًا: واجبات الفهم والعلم

٢١. تعلم علوم القرآن (الناسخ والمنسوخ – أسباب النزول – القراءات) أو طرفا منها.

٢٢. الرجوع إلى المفسرين الموثوقين لفهم كلام الله.

٢٣. تدبر السنن الكونية وغيرها التي يرشد إليها القرآن.

٢٤. دراسة مقاصده العامة في التشريع والهداية.

٢٥. تمييز المحكم والمتشابه وتجنب التأويل الباطل.

٢٦. إتقان تعلم اللغة العربية لفهم النص القرآني كما أنزل.

٢٧. جمع الآيات المتصلة بالموضوع الواحد ودراستها معرفة تسلسلها لفهم المعنى الكامل.

٢٨. نشر العلم القرآني بأسلوب رحيم وحكيم.

٢٩. الربط بين القرآن والواقع الحياتي للناس.

٣٠. الدفاع عن القرآن ورصد الشبهات المثارة ضده ودراستها وتفكيكها وتفنيدها بالمنهج العلمي.

رابعًا: واجبات العمل بالقرآن

٣١. تنفيذ أوامر الله في القرآن، في العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات.

٣٢. اجتناب ما نهى الله عنه في كتابه.

٣٣. جعل القرآن مقياسًا وميزانا للحق والباطل في كل أمر.

٣٤. التحاكم إلى القرآن في القضايا الكبرى والصغرى.

٣٥. استلهام القرآن في تربية النفس والأسرة والمجتمع.

٣٦. إصلاح الأخلاق والسلوك وفق ما يرضاه القرآن.

---

(١٠) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه... وفي هذا الحَديثِ أشارَ النَّبيُّ (ﷺ) إلى ذلكَ، فذكَرَ قَومًا سَيكونونَ في أُمَّتِه مِن بَعدِه، مِن صِفاتِهِم أنَّهم «يَقْرؤونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حَلاقِيمَهم»، والحَلاقيمُ جمعُ حُلْقومٍ، وهوَ الحُنْجرةُ وداخِلُ الفَمِ؛ فَهم يَقرؤُونَ القرآنَ ولكِنَّهم لا يَتأثَّرونَ بِهِ ولا يَفهَمونَهُ ولا يَعمَلونَ بآياتِهِ، فَلا يُؤجَرُونَ ولا يُثابونَ على ذلكَ بالحَسَناتِ، ولا تَتعدَّى قِراءتُهم ألسِنَتَهُم، فلا يُقبَلُ لهم عَملٌ، وليسَ ذلِكَ هو المَطْلوبَ؛ بل المَطْلوبُ تَعقُّلُه وتَدبُّرُه بوُقوعِه في القَلْبِ، والمُرادُ مِن كلِّ ذلك أنَّ الإيمانَ لم يَرسَخْ في قُلوبِهم. «يَخرُجونَ مِنَ الدِّينِ كما يَخرُجُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثمَّ لا يَعودونَ فيهِ»، أي: إنَّ خُرُوجَهم مِنَ الدِّينِ كخُروجِ السَّهمِ السَّريعِ الَّذي يُصيبُ الصَّيدَ فيَدخُلُ فيهِ ويَخرُجُ مِنه سَريعًا جِدًّا دونَ أنْ يَتعلَّقَ بِهِ أيُّ أثَرٍ منهُ؛ لسُرعةِ خُروجِهِ مِنَ الهدَفِ، والرَّمِيَّةُ هي الحَيوانُ أو ما تمَّ صيدُه وأصابَه السَّهمُ بعدَ الصَّيدِ، وهذا نَعتُ الخَوارِجِ الَّذين لا يَدينونَ للأئمَّةِ، ويَخرُجونَ عليهم، ويُكفِّرونَ النَّاسَ بالكَبائرِ الَّتي دونَ الشِّركِ والكُفرِ، ويَقتُلونَ أهلَ الإسْلامِ ويَترُكونَ أهلَ الأوْثانِ، وهُم بعدَ ذلكَ كلِّه لا يَعودونَ إلى الدِّينِ مرَّةً أُخْرى؛ فلا يَتوبونَ ولا يُراجِعونَ أنفُسَهم، ثمَّ عقَّبَ النَّبيُّ (ﷺ) فقالَ: «هُم شَرُّ الخَلقِ والخَليقةِ»، قيلَ: إنَّ المُرادَ بالخَلْقِ البَشَرُ، والخَليقةُ: البَهائمُ، وقيلَ: هما بمعنًى واحدٍ، فيكونُ هذا كِنايةً عن جَميعِ الخَلائقِ، فهُمْ أسوَأُ المخْلوقاتِ؛ لأنَّهم يُقاتِلونَ خيرَ النَّاسِ، وبذلكَ يُفسِدونَ الأرْضَ بعدَ صَلاحِها... (الدرر السنية الحديثية بتصرف).

٣٧. ترجمة معانيه ومقاصده إلى سلوك عملي في الواقع.
٣٨. الصبر على أوامره والثبات على نهجه.
٣٩. الانتصار للحق المستند إلى القرآن.
٤٠. تطبيق العدل والرحمة كما أمر بهما القرآن.

خامسا: واجبات الدعوة والنشر

٤١. الدعوة إلى القرآن بالحكمة والموعظة الحسنة.
٤٢. تعليم القرآن للناشئة والأجيال القادمة.
٤٣. نشر المصاحف وتيسير حفظها في المدارس والمجتمعات.
٤٤. دعم مشاريع طباعة وترجمة معاني القرآن بلغات العالم.
٤٥. توظيف وسائل الإعلام الحديثة لخدمة القرآن.
٤٦. الدفاع عن القرآن ضد التحريف والتشويه.
٤٧. إحياء تدبره في المساجد والبيوت والجامعات.
٤٨. إقامة المسابقات القرآنية تشجيعًا على حفظه وفهمه.
٤٩. الاقتداء بالنبي (ﷺ) في كونه كان خُلُقُه القرآن.
٥٠. جعل القرآن محور نهضة الأمة في العلم والحضارة والأخلاق.

وهكذا فإن واجبنا نحو القرآن الكريم لا يقتصر على تلاوته فقد؛ بل يجعله كما أراده الله دستور حياةٍ شامل: إيمانًا، وفهمًا، وعملًا، ودعوةً، وعمارةً للأرض على منهج الرحمن. فمن وفَّى هذه الواجبات عاش في ظل قوله تعالى: (...فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) (طه: ١٢٣).

أيها المسلمون وعلينا جميعا أن نوقن أن القرآن ليس كتابًا يُقرأ في المناسبات، ولا صوتًا يُتلى في الجنائز، بل هو روحُ الأمة، وسببُ عزها وعزتها ونهضتها، ودليلُها إلى النور في زمن الظلمات.. به قامت حضارة، وبه نهضت أمة، وبه صلح قلبُ الفرد والمجتمع... وإن أول واجباتنا أن نعيده إلى موقع القيادة في حياتنا، لا في رفوف بيوتنا... فلنصدق الله مع القرآن، نقرأه بتدبرٍ لا بعجلة، ونعمل به لا نغفل عنه، وننصره بأفعالنا قبل أقوالنا.. نربي أولادنا عليه، ونجعل بيوتنا مناراتٍ لتلاوته، ومجالسنا محاريبَ لتدبره، ومناهجنا التربوية منبثقةً من نوره... ولنذكر أن القرآن يشهد لصاحبه أو عليه، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله وراءه ساقه إلى النار. قال تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان: ٣٠)، فاحذر أن تكون من المهجورين، وكن من أهل القرآن الذين قال الله فيهم: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) (فاطر: ٢٩).

عودة الكتاتيب بشير خير [١١]

الكتاتيب هي الملاذ الآمن لفلذت القلوب والأكباد، وهي الأرض الخصيبة لزراعة القيم، والحاضنة التربوية المأمونة والآمنة على العقول والقلوب، وهي الرَّحم المبارك الذي خرَّجَ: النبلاء، والقُرَّاء، والأدباء، والعلماء، والفقهاء، والفلاسفة، والسياسيين، والدبلوماسيين، والعباقرة في شتى المجالات.

ودَرَسَ فيها لفيفٌ من إخوتنا المسيحيين شركائنا في الوطن؛ ليضرب الجميع أروع الأمثلة في التسامي والتسامح والتعددية وقبول الآخر والمحبة والسلام والوئام، في تجربة مصرية ملهمة للآخرين، وهذه الحالة الوطنية المصرية المتلاحمة صوَّرها أميرُ الشعراء أحمد شوقي (رحمه الله)، بقوله:

أَعَهِدْتَنَا والقِبْطَ إِلَّا أُمَّةً *** لِلأَرْضِ وَاحِدَةً تَرُومُ مَرَامًا؟
نُعْلِي تَعَالِيمَ المَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ *** وَيُوَقِّرُونَ لِأَجْلِنَا الإِسْلَامَا
هَذِي رُبُوعُكُمُ، وَتِلْكَ رُبُوعُنَا *** مُتَقَابِلِينَ نُعَالِجُ الأَيَّامَا

قيم الكتاتيب:

الكُتَّاب كان له دورٌ كبير جدًّا في:

- تشكيل الوعي.
- وبناء الشخصية.
- وترسيخ الثقافة والقيم.
- كان أنموذجًا تربويًّا وتعليميًّا فريدًا ومؤثرًا.
- فلم يكن مجرد مكان لتحفيظ القرآن الكريم فقط، بل كان محضنًا تربويًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا للطفل، يتعلم فيه القراءة، والكتابة، ومبادئ الرياضيات...
- كما كان محضنًا لتعليم العادات والتقاليد والأصول المرعية (البروتوكول، والإتيكيت، والاحترام... بطريقة فطرية)، وبوتقة لزراعة القيم النبيلة.

كان طفل الكُتَّاب يحترمُ الشيخَ ويُقدّر مَن هو أكبر سنًّا أو مَن هو أعلم منه، وكان الكُتَّاب يشحذ همم الأطفال نحو التفوق والإبداع.

وإضافةً لما سبق، كان الكُتَّاب مكانًا يجمع مختلف الطبقات تحت هدف واحد: العلم، والإيمان، وحب الوطن، وغرس القيم النبيلة، مثل الصدق، الأمانة، الإخلاص، التقوى، الرفق، التكافل، والتكامل... فيه يحتوي الكبيرُ الصغيرَ، ويحترم الصغيرُ الكبيرَ.

كما كان الكُتَّاب يعلّم مبادئ الحلال والحرام، وخطورة ارتكاب المحرمات، ويخرج الطفل إلى الحياة مشبعًا بالقيم الدينية والاجتماعية، مثل قبول الآخر، واحترام الكبير، وصون غيبة الصديق.

(١١) عودة الكتاتيب بشير خير، مقال للدكتور أحمد علي سليمان، بوابة الأهرام الإلكترونية، ٢٠٢٤-١٢-٣١

https://gate.ahram.org.eg/News/٥٠٦٥٦٢٦.aspx

ومن هذه القيم التي كان الكُتَّاب يرسخها قيمة التنافس والتفوق الشريف، ونظرًا لأن القرآن ينمي المدارك والذكاءات، ويبني الوعي، ويزيد من المحصول اللغوي للطفل، نجد أن معظم طلاب كليات القمة في الأزهر الشريف، مثل كليات الطب والهندسة والصيدلة، هم من حُفاظ القرآن الكريم الذين حفظوه مبكرًا.

شيوخ الكتاتيب ونماء الخبرة التربوية :

لقد تكوَّن في أروقة الكتاتيب فكرٌ تربويٌّ مفيد، أثرى الحياة على بساطتها وقتذاك. وكان المحفظون يمتلكون خبرة تربوية وتعليمية فطرية تراكمت عبر السنين، وقد ظهر مصطلح تربوي يفيد بأن لكل شيخ طريقة خاصة في التربية والتعليم، يمتاز بها ويتفرد عن الآخرين.

وشيوخ الكتاتيب الذين اصطفاهم الله لتعليم الأطفال كتاب الله، ومبادئ العلوم، كانت لهم مكانة، ومهابة، ومحبة في قلوب خلق الله، فقد عاشوا لله وبالله ومع الله، وعاش معظمهم على الكفاف في زهد قلَّ نظيره في دنيا الناس، بعيدًا عن مباهج الدنيا وزينتها وزخرفها.

وشيخ الكُتَّاب كان أمينًا على الأطفال، على عقولهم وأفكارهم وقلوبهم، فكانوا يخرجون للحياة بإيمان فطري سليم، بعيد عن التطرف والتعصب والتزمت والتشدد، سالمين، غانمين، صالحين ونافعين.

وبالتالي كانت الكتاتيب تؤهل هؤلاء الأطفال ليصبحوا مواطنين صالحين يسهمون في بناء المجتمع والحفاظ عليه والدفاع عنه، والإسهام في تقدمه ورفعته.

رباط تاريم باليمن إلى أروقة الأزهر التي أسهمت في تفاعل الحضارات :

مثّلت الكتاتيب والأربطة في التاريخ الإسلامي المديد والمجيد محاضن التربية الصحيحة والسليمة والرشيدة، والتعليم الآمن الذي يغذي أنهار التسامح وشرايين الوسطية والاعتدال.

فكانت رحلة طلاب جنوب شرق آسيا إلى الأزهر الشريف تبدأ غالبًا من رباط تاريم باليمن، حيث يقضي الطالب فترة من الزمن لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية، قبل أن يتوجه إلى الأزهر الشريف.

في الأزهر، كان الطلاب الجدد يعيشون مع أبناء جِلدتهم القدامى في رواق الجاوة، فينهلون من خبراتهم وعلومهم، ويمارسون العادات والقيم التي اكتسبوها هناك وفي مصر. وبذلك، يلتحق الطالب بالدراسة وهو مفعم بالحماسة والحيوية والنشاط، بعد أن باب قادرًا على اللحاق بزملائه من العرب والمصريين، وسريع الإلمام بالعلوم وإتقانها.

وعندما يتمكن الطالب من فهم مقاصد الإسلام وإتقان اللغة العربية بعد سنوات من الجهد والتعب، يبدأ في ترجمة بعض علوم الإسلام إلى لغات بلاده والعكس؛ ليُسهم في إحداث الحراك العلمي والثقافي، والتفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب.

التحديات المترتبة على غياب الكتاتيب :

كانت الكتاتيب محاضنًا آمنة لصياغة العقول وتسييجها ضد الشطط ومخاطر التيارات الضالة، وأدت دورها على أكمل وجه في: التربية، التعليم، التهذيب، التنشئة، الرعاية، التوجيه، الإعداد، التطوير، التدريس، التلقين، التثقيف، التوعية، التعلم، التشذيب، التزكية، الصقل والترويض، وزراعة القيم في نفوس الأطفال الصغار.

كما كانت بمثابة المرحلة التأهيلية للمدارس، حيث يتعلم فيها الطلاب القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ويتدربون على الالتزام والنظافة والنظام، حتى إذا التحق الطالب بالمدرسة يصبح مؤهلاً للنجاح والتفوق والنبوغ، ومن ثَمَّ يُشار إليه بالبنان... ولقد خسرنا كثيرًا بغياب هذه المحاضن التربوية الأصيلة... وسنكسب كثيرًا بعودتها

وانتشارها بشكل عصري صحيح؛ لتساعد المؤسسات التعليمية والتربوية في تعلم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم، جنبًا إلى جنب مع القرآن الكريم.

لقد ظلّت الكتاتيب تعمل بجد ونشاط طيلة قرون مضت، باعتبارها مراكز التكوين المبكر للحصانة الفكرية والمناعة السلوكية، وترسيخ المنهج الأزهري في مجابهة :الانحراف، الغلو، التطرف، الكراهية، والاختراق.

وعندما انحسر دور الكُتَّاب وتراجع حضوره، واقتصر وجوده على أماكن قليلة جدًّا، وحلّت التكنولوجيا في كل البيوت، وزادت سطوتها في شتى مناحي الحياة، وجلبت معها قيمًا وأفكارًا غريبة، كما طلَّ علينا فكرٌ متشدد لا يمكن أبدًا أن يعبر عن روح الرسالة ورحمة الرسول (ﷺ)، كما ظهرت تحديات فكرية وسلوكية، وقيم بعيدة عن ثقافتنا، ولهجات غريبة، واختراقات متوالية، وتطرف ديني، وتطرف لاديني، بعد أن فقدنا المنافع والقيم النبيلة التي كان يؤديها الكُتَّاب؛ الأمر الذي يجعل من عودة الكتاتيب وتمكينها في المجتمع بشير خير للجميع.

أهمية مبادرة عودة الكتاتيب ودورها في بناء الإنسان والمجتمع:

لما استشعر فضيلة الإمام الأكبر أ.د/ عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الراحل (عليه رحمات الله) الخطرَ على الهُوية المصرية والعربية والإسلامية– بذل قصارى جهده، وواصل الليل بالنهار، واستثمر علاقاته الداخلية والخارجية، واستنفر الهمم، وبذل جهودًا تفوق الوصف، لإنشاء المعاهد الأزهرية في كل مكان على أرض مصر؛ لتكون منارات سامقة لنشر تعاليم الإسلام، وترسيخ التسامح والوسطية، والمحافظة على الهُوية الوطنية والدينية، ولتكون بمثابة حائط الصد المنيع ضد التخلف والشطط والتحديات الخارجية...

وما أشبه الليلة بالبارحة، وسيرًا على الدرب المبارك الميمون، واقتفاء لنهج الأكابر أمثال شيخنا الولي التقي النقي المبارك أ.د/ عبدالحليم محمود (رحمه الله)، واستشعارًا للخطر على اللغة والهوية يطلق العلامة الفاضل أ.د/ أسامة السيد الأزهري وزير الأوقاف؛ مبادرته بالغة الأهمية، من العاصمة الإدارية الجديدة، لعودة الكتاتيب في ربوع مصر، مستهلا ومفتتحًا المسابقة العالمية للقرآن الكريم الحادية والثلاثين بـ"مسجد مصر الكبير"، بقوله: "أدعو جميع القرى والمدن في مصر إلى تبني مبادرة عودة الكتاتيب؛ لأنها ليست مجرد أماكن لتحفيظ القرآن الكريم، بل هي صروح تعليمية وتربوية، تزرع القيم النبيلة، وتحفظ الهُوية، وتبني الإنسان المصري على الأخلاق الرفيعة، والفهم العميق لمعاني الدين، والانتماء الصادق للوطن، وإحياء اللغة العربية السليمة في نفوس الأجيال الجديدة ".

في رسالة تحمل للعالَم عدةَ مضامين، ورسائل، مِن بينها: أن مصر التاريخ والحضارة، مصر الماضي والحاضر والمستقبل، مصر الأزهر.. في جمهوريتها الجديدة، تسير على نهج الآباء والأجداد في:

- حماية الدين واللغة والهُوية.
- حماية لواء الوسطية والسلام.
- رفع مشاعل النور والعلوم والآداب.

وإنها والله لمبادرة خير ورشد وصلاح وإصلاح وبناء وبشير خير ونجاح وفلاح، وأيضًا إلهام للآخرين... إن شاء الله.. (ندعو الله تعالى أن يُكتب لها كامل التوفيق).

الدلالات الزمانية والمكانية للمبادرة:

تأتي هذه المبادرة في وقتها وأوانها، ولا ريب في أن اختيار الزمان والمكان والحال، له دلالات مهمة:

فالزمان: أمسى مليئًا بالتحديات المتعددة والمتنوعة والمتواترة، في عصر سطوة التكنولوجيا المتطورة وتطبيقيات الذكاء الاصطناعي، وما خلَّفته هذه التقنيات من تحديات تستهدف هُويتنا وشبابنا ولغتنا، والحرفَ العربي الشريف، وما "الفرانكو أراب" منا ببعيد، ولا عاصم لنا من الأخطاء والأخطار إلا بالتعلق بكتاب الله ودستور المسلمين.

والمكان: مصر التي حمت الإسلام وحضارته والمسلمين، وصدَّرت علوم الإسلام إلى كل بقعة من بقاع الأرض.

والحال: يعبر عنه بركات أهل القرآن الذين جاءوا إلى مصر من كل فج عميق ...

مقاصد عودة الكتاتيب في هذا الوقت بالذات:

أولًا: إيجاد بيئة حاضنة للإيمان، والوسطية، والانتماء، والتسامح، والتعددية، والتعايش، على شتى التراب الوطني.

ثانيًا: إيجاد بيئة لافظة للتشدد، والغلو، والتطرف، والكراهية، في ربوع المحروسة.

ثالثًا: تمكين المنهج الأزهري الفريد، الذي يحول دون الانجرار إلى التطرف أو التشدد، ونشر الاستنارة منذ الصغر، بما يسهم في تكوين جيل لديه مقومات التعايش والانتماء والتجديد، ويلفظ التشدد والمتشددين.

رابعًا: لَمِّ شَمْلِ الهُوِيَّةِ الوطنية والعربية والإسلامية بعد التأثيرات والاختراقات التي حدثت بفعل العولمة الثقافية، ووسائل التواصل، وآليات التكنولوجيا الحديثة، وآخرها الذكاء الاصطناعي، وَضَبْطَ بُوْصَلَةِ الفِكْرِ، وَإِحْيَاء اللُّغة العربية، وَتَرْسِيخ القِيَمِ، وَبِنَاء الإِنْسَانِ السَّوِيِّ، فِي عَصْرٍ شديد التَّغيُّرِ.

خامسا: تنمية الجوانب الروحية والمعرفية للأطفال، بما يسهم في بناء شخصياتهم وتكوينهم وإعدادهم لمواجهة تحديات الحياة.

سادسًا: تحصيل البركات من انتشار هذه الكتاتيب التي ستملأ آفاق مصر ودروبها وسهولها ذِكرًا وقرآنًا وإيمانًا، فيعمّ خير الله فينا؛ فالقرآن يجلب البركات والخيرات والأنوار، كما قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...) (الأعراف: ٩٦) .

الكُتَّاب.. نواة التجديد:

سعينا كثيرًا في مجال تجديد الخطاب الديني، وتجديد فهم الدين، ولكي تكتمل الدائرة، فعلينا أن نبدأ من اللبنة الأولى، وهي الأطفال، من خلال زراعة القيم النبيلة في قلوبهم، وتأهيلهم لتجديد فهم الدين، منذ نعومة أظافرهم.

فالقرآن العظيم يُسهم في:

- تشكيل وعي النشء.
- وتحسين نطقه.
- وزيادة محصوله اللغوي.
- وصياغة عقله.
- وضبط موازين فكره.
- وتنمية الإيمان الفطري في نفسه؛ مما يؤهله مستقبلا لفهم مقاصد الدين الحنيف، والإسهام –مستقبلا– في عمليات الاجتهاد المنضبط الذي يغذي أنهار التجديد .

آليات عملية لتنفيذ المبادرة:

ونظرًا لتطور الحياة، أصبحنا بحاجة ماسة إلى كتاتيب عصرية ثابتة ومتحركة وإلكترونية في المساجد والمكاتب المعتمدة. ويجب أن يكون القائمون عليها من أولي النهى وأصحاب الرسالة، يمتلكون الحكمة والبصر والبصيرة،

وواعين بمشكلات المجتمع والأمة. وأقترح إجراء دراسات ميسرة في علوم النفس والاجتماع والطفولة، واستراتيجيات التعليم والتعلم، لتدريب المحفظين عليها وضمان فعاليتها.

وإن الاستثمار في تأهيل المحفظين والمعلمين، وتشجيع الابتكار في منظومة عمل الكتاتيب، وتفعيل الشراكة مع المنظمات الخيرية والمجتمع المحلي لدعم البرامج وتوفير المرافق وما يلزمها، مع تعزيز الأنشطة وتنظيم فعاليات ترفيهية تُسهم في توفير بيئة تعليمية ملائمة ومحفزة وجاذبة للأطفال، وتوفير مساحات تعليمية مريحة وملهمة، وتشجيع الصغار على الاستكشاف والتفكير النقدي وحل المشكلات؛ هو الضمانة الحقيقية لنجاح مبادرة عودة الكتاتيب؛ لتكون منارات تجمع بين القيم الإسلامية والمعرفة الحديثة، وتبنيها، مما يُسهم في إعداد جيل متعلم وواعٍ ومبدع...

يمكن التحرك لإنجاح وإنفاذ هذه المبادرة المباركة، من خلال عدة محاور، على النحو التالي:

المحور الأول: من خلال مساجد الأوقاف المنتشرة في كل ربوع مصر، والسادة الأئمة ومقيمي الشعائر، ويمكن إنشاء كتَّاب في بعض المساجد، سواء عبر ملحق داخلي أو خارجي، إذا تعذّر وجود المكان.

ويضاف مجال تحفيظ القرآن ليعمل الإمام في أدوار متعددة: إمام، وخطيب، ومدرس، ومحفظ، مع زيادة الحوافز نظير العبء المضاف عليهم. ويعد هذا مجالًا شريفًا جدًّا، على أن يتم تدريبهم على منهجية العمل وفقًا لوثيقة عمل الكتاتيب، ورؤية وزارة الأوقاف ورسالتها.

مع الأخذ في الاعتبار أن قضية التحفيظ هي من أماني الكبار، فقد كانت أمنية مولانا الإمام الأكبر فضيلة أ.د/ أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف (يحفظه الله)، حيث قال للعالم، خلال جولته في دول جنوب شرق آسيا في يوليو ٢٠٢٤، في لحظة صادقة تعكس روح البساطة والوفاء: [لا تزال أقصى أمانيَّ حتى اليوم أن أذهب وأفتح كُتَّابًا وأجلس على حصير، لأُعلم التلاميذ وأحفظهم القرآن الكريم، وأتمنى أن يحقق الله لي هذا الأمل قبل أن أموت]. وهذه الكلمات تحمل رسالة عظيمة عن قيمة الكتاتيب ودورها في بناء الإنسان.

المحور الثاني: تشجيع السادة المحافظين في شتى المحافظات المصرية على إنشاء الكتاتيب، وتنظيم مسابقات للقرآن الكريم على غرار مسابقة بورسعيد السنوية الدولية للقرآن الكريم، التي حققت نجاحات كبيرة وأصبحت محط الأنظار.

المحور الثالث: تشجيع رجال الأعمال والأثرياء على المشاركة بفعالية في هذا المضمار، بحيث يكون لكل مؤسسة قادرة عدد من الكتاتيب الحديثة، لخدمة أولاد العاملين وغيرهم.

المحور الرابع: الاستفادة من خبرات الكتاتيب الناجحة، وتبادلها مع المؤسسات الأخرى، من خلال نسق إداري منظم.

المحور الخامس: تنظيم المسابقات بين المحافظات المصرية لاختيار أكبر المحافظات إنتاجًا للكُتَّاب وأعلى تفعيلًا لرسالة الكتاتيب، وزيادة عدد حفاظ القرآن الكريم فيها.

المحور السادس: وضع معايير واضحة لجودة الكتاتيب، لضمان تميز المدخلات التعليمية، وكفاءة العمليات التربوية، وفاعلية المخرجات من حيث تحفيظ القرآن، وغرس القيم، وتنمية المهارات لدى الأطفال، والحفاظ على صحتهم العامة والنفسية، وضمان انتقال أثر التعلم والقيم إلى حياتهم وسلوكهم.

المحور السابع: نقترح إدراج افتتاح الكتاتيب جنبًا إلى جنب مع افتتاح المساجد ضمن خطة الأوقاف الدورية، لتحفيز الناس وشحذ الهمم نحو إنشاء مزيد من الكتاتيب..

المحور الثامن: التنسيق بين الكتاتيب المنتشرة في كل ربوع مصر بهدف اكتشاف المواهب وتنميتها في شتى المجالات، من خلال خطوات عملية واقعية:

١. تحديد الكتاتيب النشطة ووضع خطة دورية لزيارتها وتقييم أدائها وتحفيزها ونقل خبراتها للآخرين.

٢. رصد الطلاب المتميزين بشكل مستمر وتوثيق مهاراتهم وإمكاناتهم في قواعد بيانات مركزية.
٣. تصميم برامج تدريبية قصيرة وطويلة المدى للموهوبين، بالتعاون مع المدارس والمراكز الثقافية، لضمان الاستثمار الأمثل في هذه المواهب في المستقبل القريب والبعيد.

وفي النهاية سيشهد التاريخ أن هذه المبادرة التي تحظى بدعم السيد الرئيس/ عبدالفتاح السيسي رئيس الجمهورية، ستكون بشير خير وبركة لمصر الغالية، ومصدر إلهام للعالم، ومن ثم يجب علينا جميعًا أن نساند ونساعد وزارة الأوقاف ووزيرها الفاضل، ونسعى جميعًا بكل ما أوتينا من إمكانات، لتنفيذها، ودعمها، وإنجاحها؛ لتحقيق أهدافها النبيلة في صياغة عقول النشء والشباب، وبناء الإنسان بناء متوازنًا وواعيًا ومحصنًا فكريًّا وسلوكيًّا ضد الوافد العاتي، وقادرًا على الإسهام في بناء مجتمعه وحمايته وإسعاده وإمداده بكل خير.. اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، واجعلنا ممن يعيشون بالقرآن، ويُدافعون عنه، ويُبلّغونه للعالمين بحقّ وعدلٍ ورحمة.

اللهم اكتُب أسماءنا في سجلات المؤمنين الموحدين، وفي ديوان المرحومين، وارفع أقدارنا في علّيين، وأنزل علينا السكينة والطمأنينة، ونور اليقين.. نسأل الله أن يبارك في أوطاننا ويحفظها من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللَّهُمَّ احفظها من كل سوء، وبارك لنا فيها، واجعلها دار أمن وإيمان، وسلامٍ وإسلام. اللَّهُمَّ من أرادها بسوء فاجعل تدبيره تدميره، وردّ كيده إلى نحره. اللهم احفظ مصر شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، طولها وعرضها وعمقها، بحارها وسماءها ونيلها، ووفق يا ربنا قيادتها وجيشها وأمنها وأزهرها الشريف، وعلماءها، واحفظ شعبها، وبلاد المحبين يا رب العالمين.

اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا اللهم طهّر قلوبنا من الكبر، وزيّنها بالتواضع،اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(...رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: ١٩)، (..الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﷺ ...) (الأعراف: ٤٣)... اللهم تقبل هذا العمل من الجميع... وبالله تعالى التوفيق

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

والحاصل على المركز الأول على مستوى الجمهورية في خدمة الفقه والدعوة (وقف الفنجري ٢٠٢٢م)
المدير التنفيذي السابق لرابطة الجامعات الإسلامية- عضو نقابة اتحاد كُتَّاب مصر

واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman55555@gmail.com

تم تدشين صفحة #معارج_الدعاة للدكتور أحمد علي سليمان، للإسهام في إثراء العمل الدعوي والدعاة يرجى متابعتها ونشرها

https: //www.facebook.com/share/١٦u٦EDacEw/?mibextid=LQQJ٤d